مفهوم العمل في ديوان" الزراعيات " لفرجيليوس: دراسة في التناص

نجوى أحمد مصطفى
باحثة دكتوراه
تحت إشراف أ.د. علي عبد التواب
كلية الآداب – جامعة القاهرة

مقدمة:

كان لديوان " في طبيعة الأشياء " عميق الأثر في ديوان" الزراعيات " لفرجيليوس ... ففي عام ١٩٠٨ كتب الباحث " سيلر" (Sellar W. Y.) يقول:

" إن التأثير – المباشر وغير المباشر – الذي مارسه لوكريتيوس على فكر وأسلوب مؤلف الزراعيات وحتى مفرداته، ربما يكون أكبر من تأثير شاعر عظيم في أيما وقت مضى على شاعر آخر ... ففهم فرجيليوس للطبيعة كان مستوحى مباشرة من فكر لوكريتيوس؛ هذا فضلًا عن إيمانه الراسخ الشديد به والذي بلغ حد الإفراط."[1]

أما جوزيف فاريل (Farrell J.) الذي قرأ الزراعيات من وحي إمعان النظر في تاريخ الأدب، يرى أن الشاعر كان يجدد في أسلوب الشعراء السابقين عليه بحيث يضع نفسه مركز الوريث لتراث الشعر التعليمي المتناقل من جيل إلى آخر. في دراسته التي تدور حول الإشارات غير المباشرة إلى لوكريتيوس والموجودة في الكتابين الثاني والثالث من الزراعيات – على سبيل المثال يقترح فاريل: " أن تقديم

1. Sellar, W. Y. (1908), The Roman Poets of the Augustan Age; Virgil. Oxford. p. 267. apud Catto, B. (1981) The Concept of Nature in DRN & Georgics. (1981) Diss. Univ. of Pennsylvania.

فرجيليوس للوكريتيوس في ثوب جديد لا يعني انتقاده له أو تحامله عليه، وإنما يحمل روح المحاكاة التي تدل على تقديره له، وليؤكد في الوقت نفسه على المكانة التي يحتلها لوكريتيوس في التراث الشعر التعليمي الملحمي. إن أصداء شعر لوكريتيوس الموجودة في زراعيات فرجيليوس تنم بوضوح تام على إعجاب فرجيليوس بديوان لوكريتيوس إعجابًا عظيمًا، وتقدير أسلوبه حيث أدخل في شعره أدوات تقنية بالغة الصعوبة."[٢]

ويجدر في هذا السياق الرجوع إلى مقال توماس (Thomas R.) الذي آثر استعمال المصطلح (reference) ويعني "الإسناد أو الإحالة لنص آخر" مفضلًا ذلك عن مصطلح (Allusion) أي "الإشارة الضمنية"؛ فقد كان فرجيليوس يعمد باستمرار إلى جعل القارئ يعود إلى نموذجه الذي حذا حذوه، ويرجع إلى النص الأصلي أي "في طبيعة الأشياء"، ثم يطبق ما رصده في هذا النص الأصلي على ديوان فرجيليوس. ويستطرد توماس بأنه يتعين على النقاد في هذا المقام مراعاة الدقة الشديدة عند تحديد الفرق بين الإشارة العابرة الموجودة في نص فرجيليوس والتي قد تشير إلى لوكريتيوس، وبين الإسناد الحقيقي الذي يمس بوضوح تام الموضوع (topoi)؛ حيث تتمثل المشكلة الأساسية في دراسة من ذلك النوع في تحديد متى تكون الإشارة إسنادًا حقيقيًا ومتى تكون مجرد نقطة التقاء عابرة غير مقصودة، لكن يتعذر تفاديها فلا يمكن إغفالها بين شاعرين يعالجان نفس الموضوع أو يستخدمان مفردات مشتركة.[٣]

2. Farrell J. , (1991) Vergil's Georgics and the Tradition of Ancient Epic: The Art of Allusion in Literary History. New York pp. 205f.
3. Thomas, R. (1986) " Virgil's Georgics and the Art of Reference," HSCP 90 p. 172. apud Meban, D. (2002) Essays in Virgilian Intertextuality: Text, Culture, Context. Diss. Toronto pp. 18f.

قيمة العمل عند الرومان:

أدرك الرومان قيمة العمل فمجدوه وأولوه احترامًا وتقديرا، ولم نجد نظيرًا في اللغة الإغريقية لفضيلة المثابرة والاجتهاد في أداء العمل والكفاح في أوقات الأزمات (industria)، تلك الفضيلة التي يتحلى بها الرومان وحدهم، بل وجد العمل ازدراء من قبل بعض الكتاب الإغريق؛ فنادرًا ما احتلت المثابرة منزلة بين الفضائل الإغريقية، ولم يعدوا التراخي والقعود عن العمل من الصفات الذميمة. أما الرومان، فخلافًا لذلك، أظهروا قدرة فائقة على العمل في كل حقل من حقول النشاط – في الحرب، وفي إدارة شؤون الحكم، وفي المعاملات التجارية، وفي الاضطلاع بمهام تعود بالنفع على الصالح العام، وفي زراعة الأرض. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها واستقرت أمور الإمبراطورية، صارت العودة إلى العمل الزراعي هو الأنسب لحاجات الرومان؛ فقد كانت الأرض بالنسبة إليهم هي الحقل الرئيس لاجتهادهم، كما أنها المورد الأصلي لثرواتهم؛ وذلك على نحوٍ مساوٍ للبحر عند الإغريق؛ إذ كان مسرح الأحداث بالنسبة لهم ودافعًا لمغامراتهم وتجاربهم ومصدرًا عظيمًا للرواج الاقتصادي ورخائهم، وقد أُلفت الأوديسية من وحي مجرى حياتهم في حقل النشاط الملاحي وإقامة المستعمرات الإغريقية، والذي يوازي إخضاع الأراضي عند الرومان؛[٤] فبفضل المثابرة على العمل وقوة الاحتمال والجلد دانت الأرض كلها لشعب إيطاليا ونجحوا في تحقيق أعمال مجيدة (operum laborem).[٥] هذا كما أن العمل (labor) كان صاحب الفضل الأول في تفرد الشخصية الرومانية؛ فنجد أن أينياس[٦] يهتف قائلًا لأخاتيس (Achetes):

……'quis iam locus,' inquit, 'Achate,

4. Sellar, W. Y. op. cit. p. 267.
5. Ibid p. 262
6. Verg. Aen. 1. 459f.

quae regio in terris nostri non plena laboris?

"وقال: أي مكان الآن يا أخاتيس،

أي بقعة في الأرض لا تفيض بكدنا"

قال ذلك في سياق حديثه عن معاناته الطويلة. غير أن هذه المعاناة نفسها هي ماجعلته مشهورًا؛ فمن الآن فصاعدًا لم يعد شخصًا خامل الذكر.(٧) فقد كانت منظومة القيم والمبادئ المتعارف عليها بين الرومان واضحة المعالم ومحددة في تقديرهم لأهمية العمل وقيمته بوصفه مثال الفضائل الرومانية؛ فالقدرة على الصمود في المحن والشدائد والأوقات العصيبة، ذلك ما أضفى على أبطال العصر الجمهوري القديم صفة العظماء التي عرفوا بها، ومكنهم من تشييد إمبراطورية مترامية الأطراف والحفاظ على بقائها.(٨)

ويرتبط العمل بوجه خاص بأعمال الحقل وبالجهد العسكري، ويعد كلًا من العمل بالزراعة والخدمة العسكرية من المهن الشاقة، إلا أن الفضل يعود إليهما في صنع مجد روما. فالصورة المثالية للفلاح الصغير الذي يملك أرضًا يزرعها وقت السلم، ويناضل في الحرب بعزم بما يمليه عليه ضميره، كان يشكل نمط الحياة المثالي إبان العصر الجمهوري.

يفيد مصطلح "العمل" (labor) في الأدب اللاتيني العديد من المعاني كالعمل الشاق والعمل العظيم، والكد والمشقة والألم، ومصدر الأسى والمحن. فالمصطلح يتضمن معناه العمل الجاهد من أجل تحقيق الأمجاد، أو النضال ضد الظروف غير المواتية، ومن ثم فإن العمل هو فضيلة الشعور بالواجب.(٩)

---

7. Quartarone L. (1996), Locus Ambiguus: From Otium to Labor in Vergil' Eclogues and Georgics, Diss. Univ. Washington. p. 118

8. Gale M. (2000) Virgil on the Nature of Things. Cambridge p.157

9. Ibid. p. 144f.

يرتبط مصطلح (cura) عن كثب بمصطلح (labor)، فهي تدل في معناها الدارج على الجهد والاجتهاد، وغالبًا ما ترتبط ببعض الفضائل الرومانية كالاجتهاد (diligentia) بوجه خاص في مجاليَ النشاط الحربي والزراعي. ورغم نزوع الرومان إلى تحقيق المجد من خلال الكد وبذل الجهد، فإن كلمتا (cura) و (labor) تحملان أيضًا معاني الشقاء والهم والمحن والكروب. وجدير بالذكر أن كلا المفهومان يرتبطان بكل من لوكريتيوس وفرجيليوس. (١٠)

استعمل لوكريتيوس للإعراب عن فكرة العمل (labor) بعض الكلمات وهي:

usus, cultus, opus, experientia, cura

نجد ثلاث منها في الأبيات الافتتاحية لديوان الزراعيات:

…….. quae ***cura*** boum, qui ***cultus*** habendo
sit pecori, apibus quanta ***experientia*** parcis, (Verg. Georg. 1.3-4)

" (وتحت أي نجم) يمكن تربية الثيران، وما هي الرعاية المطلوبة للاحتفاظ بالقطيع، وما نوع الخبرة المطلوبة للنحل المدبر لشئونه."

من الأبيات السابقة نجد أن كل كلمة من هذه الكلمات الثلاث قد أفردت لمهمة بعينها، فهي تعد نماذج محددة من العمل؛ وقد وردت كلمة (experientia) مرة أخرى في سياق الحديث عن النحل أيضًا:

Quis deus hanc, Musae, quis nobis extudit artem?
unde noua ingressus hominum experientia cepit? (Verg. Georg. 4.315-6)

" أي إله، أيتها الموسيات، ابتكر هذا الفن لنا؟

والذي استطاع الإنسان من خلاله أن ينهض بهذا العلم(١١) المكتشف حديثًا."

10. Verg. Aen. 6. 273-81 ; Gale M. op. cit. p. 145f.

١١. أفرد فرجيليوس لتربية النحل جزءًا من ديوانه لتصبح على قدم المساواة مع باقي العلوم الزراعية: كزراعة البساتين والعناية بالثروة الداجنة. انظر: Quartarone L., op. cit.p. 197.

فكلمة (experientia) تعني الخبرة والعلم والمهارة (ars) التي يكتسبها الإنسان بفضل جهوده. وترد كلمة (opus) في سياق أعمال الحقل؛ فعلى سبيل المثال تعد حياة الفلاح حياة حافلة بأعمال لا تعد ولا تحصى (dives opum variorum, 2.468)، وقد اعتاد الفلاح منذ نعومة أظفاره على الصبر على المكاره واحتمال المشاق:

(et patiem operum exiguoque adsueta iuventus, 2.472).

هذا كما أن جزع الفلاح وحزنه على الثور الهالك حدا به أن يحرر الثور الآخر من النير تعاطفًا معه في أساه على رفيق كفاحه الذي خر صريعًا تاركًا العمل معطلًا (opere in medio, 3.519). أما كلمة (cultus) والتي تعني "تعهد الشيء بالرعاية والتهذيب"، كما تشير إلى حراثة الأرض وتعهد النبات بالعناية بوجه عام؛ فإذا ما أنفق الفلاح الكثير من الجهد فإنه حتى الثمار البرية سوف تتخلى عن طبيعتها البرية وتتبع عن طيب خاطر الدروس التي يلقنها إياها:

exuerint siluestrem animum, cultuque frequenti
in quascumque uoles artis haud tarda sequentur. (Verg. Georg. 2. 51-2)

" سوف تتخلى عن طبيعتها البرية بفضل الرعاية المستمرة،

ولسوف تتبع عن طيب خاطر توجيهاتك التي تمليها عليها."

وكلمة (usus) ترادف أيضًا العمل، فهي تعني التطبيق العملي أو التعليم بالاختبار، وقد قضى جوبيتر بألا تكون حياة الإنسان بالغة اليسر، ومن ثم ساعدت (usus) على ابتكار الحرف والفنون:

ut uarias usus meditando extunderet artis
paulatim, (Verg. Georg. 1. 133-4)

" وشيئًا فشيئًا أخرجت التجربة النابعة من إعمال الفكر

مختلف ألوان الفنون إلى حدود النور،"

قد تمدنا الطبيعة ببعض سبل توسيع الرقعة الزراعية، لكن التطبيق العملي (usus) كشف عن الطرق الأخرى:

sunt alii, quos ipse uia sibi repperit usus: (Verg. Georg. 2. 22)

" وهناك طرق أخرى كشفت عنها التجربة من تلقاء نفسها أثناء مراحل تطورها."

وتفيد كلمة (ars) معنى التعلم والمهارة والتدريب، كما تعني تهذيب الفلاح للنباتات البرية فيحدد اتجاه نموها بليها أو بالربط والتشذيب. (١٢)

ترتبط الصفة (durus) بالعمل أيضًا، فهي تصف الإنسان شديد القدرة على احتمال المشاق، كما يتسم عتاد الفلاح بالصلابة (duris agrentibus, 1.160)، ويعود فرجيليوس بالزمن إلى أسطورة ديوكاليون وبيرها:

……., quo tempore primum
Deucalion uacuum lapides iactauit in orbem,
unde homines nati, durum genus……(Verg. Georg. 1. 61-3)

" حتمًا في ذلك العصر الذي ألقى فيه

ديوكاليون بالأحجار في العالم الشاغر،

فبرز للوجود أناس لسلالة خشنة."

يعتمد فرجيليوس هنا على لوكريتيوس، فالجيل الأول من البشر كان طبقًا للوكريتيوس "صلبًا" (durus)، إذ إن الأرض التي أخرجته إلى الحياة كانت "صلبة" (dura):

Et genus humanum multo fuit illud in arvis
durius, ut decuit, tellus quod dura creasset, (Lucr. DRN 5. 925-6)

" كان الجنس البشري الذي يسكن الأرض حينها أكثر صلابة من

الإنسان الحالي، وهذا أمر طبيعي لأن الأرض الصلبة قد أنجبه."

ويطلق لوكريتيوس على العمل (labor) الصفة (durus):

atque ipsi pariter durum sufferre laborem
atque opere in duro durarent membra manusque.
(Lucr. DRN 5. 1359-60)

" وأن يؤدوا هم سويًا العمل الشاق،

12. Catto B. A., op. cit. p. 245-9

وبأداء هذا العمل الشاق صارت أجسادهم وسواعدهم قوية."

وبطبيعة الحال لا توجد جوانب إيجابية في هذا العمل المرهق (durus labor) بالنسبة للوكريتيوس، ولا يعود على صاحبه بطائل، أما من وجهة نظر فرجيليوس فالعمل خلافًا لذلك يساعد على تفسير الدافع من وراء جعل الحياة شاقة، عسى أن يتمكن البشر بفضل عملهم (labor) من تحسين مستوى المعيشة: [١٣]

……labor omnia uicit
improbus et duris urgens in rebus egestas. (Verg. Georg. 1. 145-6)

" وتغلب العمل الشاق على سائر العقبات

وكذلك الحاجة التي تضيق الخناق أوقات العثرات."

يستطيع المرء عند لوكريتيوس أن يحافظ على بقائه إذا تمكن فقط من تكييف نفسه وفق ظروف البيئة، والتي تكون في كل الأحوال غير مواتية، وقد يحصل على قدر ضئيل من أسباب العيش عن طريق صراعه المتواصل ضد قوى الأرض المستعصية، وحتى بعد تكبد كل هذا العناء ومراعاة الحذر الدائم، ثمة موجبات يقف المرء أمامها مكتوف اليدين كقسوة المناخ والتقلبات الجوية التي يمكن التنبؤ بها التي تؤدي إلى إحباط جهوده:

quod super est arvi, tamen id natura sua vi
sentibus obducat, ni vis humana resistat
vitai causa valido consueta bidenti
ingemere et terram pressis proscindere aratris.
si non fecundas vertentes vomere glebas
terraique solum subigentes cimus ad ortus.
sponte sua nequeant liquidas existere in auras.
et tamen inter dum magno quaesita labore
cum iam per terras frondent atque omnia florent,
aut nimiis torret fervoribus aetherius sol
aut subiti peremunt imbris gelidaeque pruinae
flabraque ventorum violento turbine vexant. (Lucr. DRN 5. 206-217)

13. Catto B. A., op. cit. pp. 254-6

" أما ما بقي من أرض صالحة للزراعة فإن الطبيعة على أية حال
بقوتها الخاصة تنبت به نباتات ذات أشواك، وذلك إن لم يقاوم
الإنسان هذا الوضع، فقد اعتاد أن يلهث فوق المعول القوى من
أجل البقاء فى الحياة، وأن يحرث الأرض بضربات المحاريث.
فإن لم نحث الأرض على الإثمار بتقليب التربة الخصبة
بشفرة المحراث وعجن سطح الأرض،
فإن الثمار لن يمكنها النمو من تلقاء نفسها فى الهواء الطلق،
وحتى عندما تُنبت الأرض من حين لآخر بفضل العمل الشاق،
وعندما تملأ أوراق الشجر الحقول وتزدهر كل الزروع،
فإما أن تصيبها الشمس من السماء بحرارتها الحارقة فتذبل،
أو تدمرها الأمطار الغزيرة المفاجئة والجليد المسبب للقشعريرة،
أو يسحقها هبوب الرياح بعاصفة عنيفة."

يتسم الفكر الذي تطرحه هذه الأبيات بالعمق؛ فكرة الكفاح المرير الذي يضطر إليه المرء ليواصل سيره رغم العقبات. فتعبر عن الصراع بين قوة الإنسان (vis humana) المتمثلة في شخص الفلاح، وبين قوة الطبيعة التي تحبط هذه الأعمال العظيمة التي يقوم بها الإنسان. [١٤]

إن لم يكن لوكريتيوس قد ألف هذه الأبيات قبل فرجيليوس لقلنا إنها فرجيلية الطابع؛ إذ نجد لهذه الفقرة صدى واضح في كتابي ديوان الزراعيات الأول والثاني:

DRN 206-7 = G. 2.411

14. Sellar W. Y., op. cit. 205-6

DRN 207, 213 = G. 1.127-8
DRN 208-9 = G. 2.355-6; 2.237 ; 1.45-6
DRN 210 = G. 1.147
DRN 211 = G. 2.49
DRN 212 = G. 2.47 ; 1.404
DRN 216-7 = G. 2.293-4 ; 2.263

يصور لوكريتيوس الجهد المبذول في العمل:

valido consueta bidenti (208)

" فقد اعتاد (أن يلهث) فوق المعول القوي"

وفي المقابل يوصي فرجيليوس فلاحه:

duros iactare bidentis, (2.355)

" وأن يعزق الأرض بالمعاول شديدة الوطأة "

حيث تفيد (duros) نفس معنى(valido)؛ غير أن الصفة (validus) لم ترد عند فرجيليوس في نفس سياق الكلام، وإن كانت مقتبسة من عبارة لوكريتيوس:

et ualidis terram proscinde iuuencis. (Verg. Georg. 2. 237)

" ولتدع ثورك القوي يحطم كتل الطمي "

ومن البيت التالي للوكريتيوس:

…….. imbris gelidaeque pruinae
flabraque ventorum (Lucr. DRN 5. 216-7)

" أو تدمرها الأمطار الغزيرة المفاجئة والجليد المسبب للقشعريرة،

أو يسحقها هبوب الرياح بعاصفة عنيفة."

يقتبس فرجيليوس نصف عبارة لوكريتيوس الآتية عند تصويره لخصائص التربة غير متماسكة القوام:

id uenti curant gelidaeque pruinae (Verg. Georg. 2. 263)

" ويحذرون أمر الرياح وبرودة الجو والصقيع (الذي يقضي على النبات)"

وعقب ثلاثين بيتًا في سياق آخر يقترب فرجيليوس أكثر من أسلوب لوكريتيوس، حيث استعمل فرجيليوس الشق الآخر من عبارة لوكريتيوس ليصور شجرة ذات أصل ثابت:

ergo non hiemes illam, non flabra neque imbres conuellunt: (Verg. Georg. 2. 293-4)

" من ثم لا يستطيع فصل الشتاء العاصف أو هبوب الرياح أو انهمار الأمطار أن يقضي عليها؛"

يبدو من هذه الأصداء اللوكريتية أن محاكاة لغة لوكريتيوس وفكره كانت تسود ديوان الزراعيات.

إن موضوع العمل (labor) كما عالجه فرجيليوس يبدو للوهلة الأولى أنه مقتبسًا من هيسيودوس، والحق أنه مقتبس برمته من فقرة لوكريتيوس السابقة، ومن فقرات أخرى وبوجه خاص تلك التي تتناول تطور الزراعة بختام الكتاب الخامس؛ فزراعة الفلاح لأرضه عند فرجيليوس تضارع الصراع المستمر مع عالم الطبيعة بالنسبة للوكريتيوس (5. 207)؛ إذ يتعين عليه أن يرزح تحت وطأة المحراث الثقيل (209)، ويجبر الأرض على أن تتحول إلى تربة خصبة (211)؛ فالنباتات لا تنمو من تلقاء نفسها(212)، وإنما لا يتأتى جني الثمار إلا بعد عمل شاق(213)، والذي كثيرًا ما يكون عرضة لإعاقة تطوره بسبب نبات العليق الذي يعيق نمو المحاصيل(207). إن

موقف لوكريتيوس العقلاني من العمل الزراعي، والذي كان قد أوجزه في فقرة واحدة (5.206-217)، نثره فرجيليوس على مدار ديوانه كله. [١٥]

يشير لوكريتيوس في الكتاب الأول إلى ضرورة العمل (labor) للحصول على الغذاء؛ فالأرض تضم في جوفها الذرات الأولى التي يقربها الإنسان من سطح الأرض ويخرجها عن طريق تقليبها بالمحراث وتحريك تربة الأرض الخصبة إلى أعلى، وإن لم يكن الأمر على هذا النحو، فإن المحاصيل دون جهد منا (sine nostro labore) تنمو طواعية من تلقاء نفسها على نحو أفضل بكثير. [١٦]

يعد العمل(labor) الكلمة المفتاح في الفقرة التالية:

quae nunc vix nostro grandescunt aucta labore,
conterimusque boves et viris agricolarum,
conficimus ferrum vix arvis suppeditati:
usque adeo parcunt fetus augentque laborem. (Lucr. DRN 2. 1160-3)

" الثمار التي نادرًا ما تصل الآن إلى تمام النضج وتزداد بفضل جهدنا،

حيث تضني ثورنا ونستنزف قوة فلاحينا،

وننهك سن المحراث حتى تطعمنا حقولنا بكدنا.

إلى ذلك الحد آلت منتجات الأرض إلى الزوال وتزداد فقط بمجهود البشر."

فالإنسان يعمل باجتهاد ويكد في العمل لكن من غير طائل، وكلما تقدم الزمن كلما زادت الأعباء؛ فلا يكون بمقدوره ملاحقة الاضمحلال المستمر، وتتناقص خصوبة الأرض التدريجي. [١٧] يأخذ لوكريتيوس بعين الاعتبار هذه الظروف البيئية ويعتبرها

15. Lloyd, J. (2004) Lucretius in the Greco-Roman Didactic Tradition, Diss. Univ. Durham pp. 90-4.
16. Lucr. 1. 208-17
17. Catto B. A., op. cit. pp. 165-7

حالة ميئوس منها وغير قابلة للعلاج، نظرًا لأنها سوف تزداد حتمًا سوءًا. وسيجد كل جيل جديد من المزارعين وأصحاب بساتين الكروم أن أعباءهم باتت أشد وطأة:

iamque caput quassans grandis suspirat arator
crebrius, in cassum magnos cecidisse labores, (Lucr. DRN 2. 1164-5)

" وفي عصرنا هذا يهز المزارع الجليل رأسه وهو يتحسر

كثيرًا، لأن عمل يديه العظيم ذهب سدى،"

ويعود هذا التناقص التلقائي في القدرة الإنتاجية إلى تبدد الذرات التي خُلق منها العالم، فيكون الفاقد أكبر بكثير من الإمداد بذرات جديدة، تحت وطأة هذه الظروف التي لا سبيل إلى معالجتها، ماذا يجب على المرء فعله؟ لا يوجد حل عند لوكريتيوس سوى دراسة نواميس الطبيعة، من ثم نروض النفس على التسليم بأن ما لا نستطيع تغييره هو أمر واقع،[١٨] ومع ذلك نجده في فقرات أخرى من ديوانه يؤكد على أن براعة الإنسان والمعرفة المكتسبة عن طريق الرصد والملاحظة قدمت الكثير فازدادت خصوبة الأرض وتحسنت قدرتها الإنتاجية: [١٩]

inde aliam atque aliam culturam dulcis agelli
temptabant fructusque feros mansuescere terra
cernebant indulgendo blandeque colendo. (Lucr. DRN 5. 1367-9)

" بعد ذلك جربوا في أرضهم الغالية طرق الزراعة الواحدة

تلو الأخرى، ولاحظوا أن الثمار البرية تنمو في أرضهم

وذلك بالعناية بها ورعايتها بلطف بالغ."

١٨. تروض فلسفة لوكريتيوس النفس على تحقيق هدوءها؛ وإعمال الفكر التأملي، من ثم فهي تناسب المرء عندما يفرغ من عمله (otium). Sellar W. Y., op. cit. p.207

19. Ibid. p. 206f.

يعرب فرجيليوس بوضوح تام عن أن العالم في سبيله إلى الزوال: [٢٠]

…….. sic omnia fatis
in peius ruere ac retro sublapsa referri,
non aliter quam qui aduerso uix flumine lembum
remigiis subigit, si bracchia forte remisit,
atque illum in praeceps prono rapit alueus amni.
(Verg. Georg. 1. 199-203)

" وعلى هذا النحو – بمقتضى ناموس السماء –

فإن جميع الأشياء تسارع نحو ما هو أسوأ وتمضي في سلاسة متراجعة

كمثل قائد الدفة الذي بالكاد ما يتمكن مجدافاه من شق طريق

لقاربه الصغير وسط التيار، غير أنه ما إن يرخي للحظة ذراعيه،

سرعان ما يجرفه التيار إلى أعمق نقطة في النهر."

فالجهد الذي صوره هنا يكون بطبيعة الحال (improbus) ؛ إنه كمثل من يحاول الحفاظ على البقاء في المكان نفسه عن طريق الركض بأقصى سرعة ممكنة. تعد هذه الأبيات إشارة مباشرة إلى لوكريتيوس؛ حيث يؤكد فرجيليوس على أهمية العمل الشاق المتواصل والمتسم بالمثابرة، لأن المحاصيل سوف تضعف وتأخذ في التناقص ما لم تلق عناية دقيقة:

uidi lecta diu et multo spectata labore
degenerare tamen, *ni uis humana* quotannis
maxima quaeque manu legeret: (Verg. Georg. 1. 197-199)

" لقد رأيت رؤى العين بذورًا على الرغم من انتقائها بعناية فائقة وإخضاعها

لفحص دقيق لكنها مع ذلك تتعرض لعوامل الفساد، وإن كانت جهود البشر

٢٠ . تركت فكرة اضمحلال قدرة الأرض الإنتاجية أثرًا عظيمًا في عقول الرومان، انظر:
Sellar W. Y., op. cit. p. 207.

المبذولة عامًا إثر عام لم تنتخب باليد الجزء الأعظم من البذور."

يعد التعبير (ni uis humana) إشارة مباشرة إلى أبيات لوكريتيوس الآتية:

quod super est arvi, tamen id natura sua vi
sentibus obducat, ni vis humana resistat(Lucr. DRN 5. 1367-9)

" أما ما بقي من أرض صالحة للزراعة فإن الطبيعة على أية حال بقوتها الخاصة تنبت به نباتات ذات أشواك، وذلك إن لم يقاوم الإنسان هذا الوضع." (٢١)

عند مضاهاة ختام الكتاب الأول من "زراعيات" فرجيليوس بأبيات لوكريتيوس التي يصور فيها التدهور الذي آل إليه العالم حينها:

scilicet et tempus ueniet, cum finibus illis
agricola incuruo terram molitus aratro
exesa inueniet scabra robigine pila,
aut grauibus rastris galeas pulsabit inanis
grandiaque effossis mirabitur ossa sepulcris. (Verg. Georg. 1. 493-7)

" أجل سيأتي على تلك الأراضي عصر سوف يعثر فيه

المزارع أثناء عزقه التربة بمحراثه

المنحني الشكل على رماح أكلها الصدأ،

أو تصطدم فأسه الثقيلة بخوذات خاوية

وسيصاب بالذهول من مرأى عظام ضخمة عند حفر التربة."

iamque caput quassans grandis suspirat arator
crebrius, in cassum magnos cecidisse labores,
et cum tempora temporibus praesentia confert
praeteritis, laudat fortunas saepe parentis. (Lucr. DRN 1. 1164-7)

" وفي عصرنا هذا يهز المزارع الجليل رأسه وهو يتحسر

21. Catto B. A., op. cit. pp. 210f.

كثيرًا، لأن عمل يديه العظيم ذهب سدى،

وعندما يضاهي الزمن الحاضر بالعصور

الغابرة، يثني على حظ أبيه."

تركت كلمة (grandis) أكبر الأثر حيث جعلت المزارع المثابر على احتمال المشاق يقف في خلفية لوحة تدهور البيئة. وقد حول فرجيليوس (grandis arator) إلى (agricola) الذي ورد مقرونًا بالمحراث المنحني الشكل (incurvo) مما يوحي بتدهور الزمن، كما أن وصف الرماح بأنها قد تآكلت بفعل الصدأ (exesa scabra robigine)، والخوذات بأنها خاوية (inanis) يوحي بعملية التحلل، ودهشة (mirabitur) المزارع عند رؤية العظام والقبور، ذلك العجب الذي بلغ حد الذهول عندما وجد أن هذه العظام بالغة الضخامة (grandia)، يوحي هذا أيضًا بتدهور الطبيعة الآن وبالتناقص التدريجي للمادة؛ إذ كان أناس العصور الماضية يتمتعون بقامة أكثر طولًا من أناس العصر الراهن. [٢٢]

يمثل العمل الموضوع الذي تدور حوله قصيدة " الأعمال والأيام"؛ فالعمل يعتبر ضرورة قاسية، لأننا مضطرين أن نعمل بعد أن حجب زيوس أسباب الرزق عن الإنسان جزاء لذنبهم الأول،[٢٣] وحتى في المدينة التي يسودها العدل والتي ينعم أهلها بحياة تشبه إلى حد كبير الحياة التي كان يحياها أناس سلالة العصر الذهبي، لكن لا يزال العمل ضروري. على مدار الجزء الي يعالج قضية العمل من القصيدة يواصل هيسيودوس التأكيد على ضرورة العمل الجاد ويحذر من مغبة

22. Lloyd, J. op. cit. pp. 107-8

٢٣ . استئثار البشر بلحوم القرابين وتقريب شحومها وعظامها إلى الآلهة.

التكاسل، ويحض برسيس على إتمام المهام الملقاة على عاتقه في وقتها. إن فالعمل (ἔργα) من منظور هيسيودوس يحمل مدلولًا يختلف عن (labores) عند لوكريتيوس، وعن نظرة الكتاب الرومان للفلاح الإيطالي الخشن والواقعي إلى حد القسوة. وأخيرًا يعتبر هيسيودوس العمل شيئًا مضجرًا لأنه عقوبة فُرضت على الإنسان. [٢٤] كان لهيسيودوس رؤية متجهمة ومع ذلك فقد سلم لوكريتيوس بها. أما بالنسبة لأراتوس؛ فأكثر ما يسترعي الانتباه عدم غياب العمل الزراعي حتى أثناء العصر الذهبي، ويقول بإن هناك ارتباط بين العدالة (Δῖκη) والثور والمحاريث لسد حاجة أبناء العصر الذهبي من أسباب العيش، بيد أنه لا يعد ذلك عقابًا. تقترب تفاصيل رواية أراتوس بتقرير هيسيودوس في تصوير الانحدار التدريجي لهذا العصر الشبيه بالجنة والآخذ سبيله إلى الزوال. وفي نهاية المطاف عوقب أناس العصر البرونزي لقاء قسوتهم ولقاء جريمة أكل لحم الثور – رفيقهم في العمل – فكان جزاءهم خسران الحياة الرغدة في معية ربة العدالة. يعكس رحيل الربة هذا تقرير هيسيودوس الشبيه بعالم الأحلام والذي يعالج مسألة انتهاء عصر المعادن. غير أن ربة أراتوس لن تتخلى نهائيًا عن البشر؛ إذ ستحول إلى كوكبة "العذراء" (virgo) – إحدى النجوم التي نثرها زيوس في قبة السماء لتحديد فصول السنة، من ثم ينمو كل شيء ويخرج إلى الوجود بحسبان دقيق. [٢٥] يعبر تقرير أراتوس عن ضرورة العمل والدور الذي يلعبه زيوس في صورة أكثر إيجابية ورفقًا منها عند هيسيودوس؛ فأعمال الحقل ليست شرًا لابد منه، بل غاية ومثل أعلى للعدالة. هذا

24. Hes. Op. 91-382.
25. Arat. Phaen. 112-136.

ويتسع تصور هيسيودوس لمفهوم العمل لكل من الحانب الإيجابي (ارتباط العمل بفكرة العدالة) والجانب السلبي (اعتبار العمل عقوبة فرضها زيوس على البشر)؛ وتعرض قصيدة "الظواهر" صورة أقرب إلى الواقع وإلى المثل العليا عند الرومان، يبدو فيها العمل الزراعي صفة مميزة للحياة الكريمة. والحق أن لوكريتيوس كان من أشد المؤلفين عزمًا على تجميع كل قواه في نشر الفلسفة الإبيقورية، ولهذا فقد أعاد تقييم مفهوم العمل وجعله متوافقًا مع الرسالة الإبيقورية. [٢٦] أما فرجيليوس فقد استوعب رؤية الكتاب الثلاثة ومزج بينها جميعًا؛[٢٧] حيث يتفق في الرأي مع لوكريتيوس في أن الأرض كانت في سالف العصر أوفر إنتاجًا عن اليوم، غير أنه يقبل ذلك بروح هيسيودوس قبل أن يكون من منظور لوكريتيوس؛ إذ كانت الأرض خلال العصر الذهبي – تحت حكم ساتورنوس – تنتج كل الأشياء بصورة تلقائية، أما في العصر اللاحق أي عصر جوبيتر فقد فرض على الإنسان ضرورة العمل من أجل البقاء على قيد الحياة، ولم يفعل ذلك نظرًا لغضبه – على حد ما ذهب إليه هيسيودوس – بل ليكون ذلك باعثًا على الاجتهاد. كما يدرك فرجيليوس احتمال التعرض للإخفاق والخسارة وذلك يرجع إلى ظروف لا يد للإنسان فيها كالعواصف الشديدة وتقلبات فصول السنة، هذا فضلًا عن الموجبات الأخرى التي يتعين عليه الاستعداد لها واتخاذ الإجراءات الوقائية وذلك بفضل يقظته الدائمة: [٢٨]

---

٢٦. يختلف مفهوم العمل عند لوكريتيوس؛ إذ يعده عقوبة أنزلها البشر بأنفسهم بسبب مخاوفهم الباطلة ورغباتهم المضللة. ويعد العمل الزراعي الذي يقتضي جهدًا وكدحًا شاهدًا على عدم اهتمام الآلهة بشؤون البشر، كما لا يعتبر ليلًا على معاداتها لهم.

27. Gale M., op. cit. pp. 155-8.

28. Sellar W. Y. op. cit. 209-210.

Nec tamen, haec cum sint hominumque boumque labores
uersando terram experti, nihil improbus anser
Strymoniaeque grues et amaris intiba fibris
officiunt aut umbra nocet. pater ipse colendi
haud facilem esse uiam uoluit, primusque per artem
mouit agros, curis acuens mortalia corda
nec torpere graui passus sua regna ueterno.
ante Iouem nulli subigebant arua coloni:
ne signare quidem aut partiri limite campum
fas erat; in medium quaerebant, ipsaque tellus
omnia liberius nullo poscente ferebat.
ille malum uirus serpentibus addidit atris
praedarique lupos iussit pontumque moueri,
mellaque decussit foliis ignemque remouit
et passim riuis currentia uina repressit,
ut uarias usus meditando extunderet artis
paulatim, et sulcis frumenti quaereret herbam,
ut silicis uenis abstrusum excuderet ignem.
tunc alnos primum fluuii sensere cauatas;
nauita tum stellis numeros et nomina fecit
Pleiadas, Hyadas, claramque Lycaonis Arcton.
tum laqueis captare feras et fallere uisco
inuentum et magnos canibus circumdare saltus;
atque alius latum funda iam uerberat amnem
alta petens, pelagoque alius trahit umida lina.
tum ferri rigor atque argutae lammina serrae
(nam primi cuneis scindebant fissile lignum),
tum uariae uenere artes. labor omnia uicit
improbus et duris urgens in rebus egestas.
prima Ceres ferro mortalis uertere terram
instituit, cum iam glandes atque arbuta sacrae
deficerent siluae et uictum Dodona negaret.
mox et frumentis labor additus, ut mala culmos
esset robigo segnisque horreret in aruis
carduus; intereunt segetes, subit aspera silua
lappaeque tribolique, interque nitentia culta
infelix lolium et steriles dominantur auenae.

quod nisi et adsiduis herbam insectabere rastris
et sonitu terrebis auis et ruris opaci
falce premes umbras uotisque uocaueris imbrem,
heu magnum alterius frustra spectabis aceruum
concussaque famem in siluis solabere quercu. (Verg. Georg. 1. 118-59)

" ومع الجهود المبذولة من قبل كل من الإنسان والثور

في عزقه الأرض، لا يمكن للأوزة الشرهة أن تمثل مصدر إزعاج،

ولا طيور الكركي التي تحط على ضفاف نهر ستريمون، ولا ألياف الهندباء البري،

أو فيء الأشجار يسبب أذى. لقد كانت مشيئة الرب نفسه ألا يخلو

درب الزراعة من العقبات، إذ جعل في بادئ الأمر حرفة الزراعة

توقظ الحقول من سباتها، فقد شحذ عقول البشر بشيء موضع عناية.

ولم يدع مملكة تهجع في سبات عميق.

قبل عصر جوبيتر لم يوجد فلاحون يعملون على استصلاح الأراضي:

أو أن يعينوا حدود قطعة من الأرض وفق حدود

لا مراعاة لحرمتها؛ فقد كان المرء يعمل على بلوغ الصالح العام، وتغدق الأرض

من تلقاء نفسها العطايا على الجميع من دون أن يستجديها أحد.

(جوبيتر) هو من دس الحقد البغيض في الحيات القاضية على الحياة،

واستحث الذئب على السلب والمحيط على الثوران.

وانتزع الرحيق من أوراق الأزهار، ووارى النيران عن الأبصار.

واحتجز الخمر الذي كان في سالف الزمان يجري أنهارًا في كل مكان.

من هنا أسهمت الحنكة النابعة من إعمال الفكر في ظهور الفنون والمهارات

تباعًا، فبينما كان الفلاح يبحث بين الخطوط التي صنعها المحراث عن نصل ورقة الذرة، انطلقت شرارة من عروق الذرة الصوانية.

ثم شعرت الأنهار بالقوارب المصنوعة من شجر الحور الأجوف تصافح مياهها.

عقب ذلك جاء تصنيف البحارة للنجوم وإطلاق الأسماء عليها.

هذه كوكبة البلياديس، وذلك هيادس (برج الثور)، وتلك ابنة ليكاؤون الدب المشع؛

ومن بعد ذلك عرف كيف يوقع الصيد في الشرك، فاقتنص الطير

عن طريق الفخاخ وتعلم أن يستعين بكلاب الصيد في حصار مخابئ الطرائد؛

في ذلك الحين بدأ رجل يرمي مجرى المياه الفسيح بشبكة صيده باحثًا

في الأعماق، بينما يسحب آخر من القاع خيوط شبكة كبيرة؛

وفي أعقاب هذا تم اكتشاف المعادن الصلدة ونصل السيف ذي الصريف

(أما الإنسان الأول فقد استعان بالإسفين ليشق الأخشاب فتتفرق شيعًا)،

وعلى هذا المنوال سارت المهارة تلو الأخرى في تعاقب متواصل وتغلب العمل الشاق

على سائر العقبات، وكذلك الحاجة التي تضيق الخناق في الأوقات العصيبة.

كانت كيريس أول من علم البشر تقليب الأرض بالاستعانة

بقوة المعدن، وذلك عندما بدأ جوز البلوط في التراجع وكذلك القطلب

الذي كان ينمو بغزارة في الأيك المقدس وعندما ضنت مدينة دودونا بالطعام.

لكن سرعان ما لحق بالقمح ضررًا، إذ يتغذى فطر العفن السام

على أعواد القمح و(هناك آفة أخرى) إذ تنتصب النباتات الشائكة بخشونة

في الحقول فتعيق نمو المحاصيل وتعمل على إهلاكها ليحل محلها

نباتات ذات ثمار شوكية وحسك، وبين القمح البسام

ينمو نبات الزوان الرديء بغزارة والشوفان الذي لا يحمل ثمرًا.

من ثم إن لم تكن معزقتك على أهبة الاستعداد للإغارة على هذه الحشائش الضارة ولم ترتفع عقيرتك لترويع الطيور (المتطفلة على الثمار) ولم يكبح منجلك تقدم الفيء (الذي يعيق وصول الضوء) إلى أرض الحقل و(لم ترتل) ابتهالاتك من أجل نزول الغيث. ستسدد عبثًا نظرة شاخصة ولكن دون طائل عند مرأى صومعة غلال جارك المليئة وقد تنهال على أشجار البلوط النامية في الغابات لتسد رمقك."

تعد هذه الأبيات النقطة التي تلتقي عندها رؤى كل من هيسيودوس وأراتوس ولوكريتيوس؛ حيث تشكل نظرية لوكريتيوس المتعلقة بعملية الهدم في الطبيعة إطارًا لنقض فرجيليوس لأسطورة العصر الذهبي لهيسيودوس ولعناية جوبيتر الإلهية في المذهب الرواقي. هذا فضلًا عن أن تاريخ الحضارة برمته عند لوكريتيوس هو نفي لا يتزعزع لدور الآلهة المبدعين الأوائل (πρῶτοι εὑρεταῖ) في ازدهار الحضارة الإنسانية. إذ تحل الطبيعة الخلاقة (natura creatrix) محل كيريس بوصفها قوة تبعث ارتقاء الزراعة وتعليم البشر. [٢٩] ومع ذلك فقد رد فرجيليوس كيريس إلى سيرتها الأولى؛[٣٠] وبعد تعليم كيريس البشر الزراعة جاء دور العمل (labor) الذي فرضته الآفات الزراعية والحشائش الضارة التي تنمو وسط الحقول فتعيق نمو النباتات النافعة، من ثم يؤكد فرجيليوس على ضرورة العمل مستهلًا قصة فرض جوبيتر العمل على البشر بإشارة إلى هذه الآفات مثل الأوزة الشرهة

29. Lucr. DRN 5. 1361-2
30. Gale M. , op. cit. pp. 65f.

(improbus anser)، ويعد وجود مثل هذه الآفات عقبة يصعب التغلب عليها (improbus labor)، ويستطرد قائلًا إن هذه الآفات كانت بقضاء إلهي. [٣١]

ثمة تعارض بين أسطورة العصر الذهبي واستعارة تجرُد لوكريتيوس واستقلال رأيه وبين فكرة ضرورة العمل من أجل الاستفادة بموارد الطبيعة واستخراج ثرواتها؛ فلم يصور فرجيليوس المزارع كنوع من بقايا العصر الذهبي، بل كامرئ يحتاج إلى العمل، لأنه يُقال إن عصر ساتورنوس الذهبي كان عصرًا سابق على ظهور الحرب وأساسًا لعظمة روما المعاصرة وللإمبراطورية الرومانية. يعد الفلاح من منظور فرجيليوس مثالًا للاكتفاء الذاتي والقناعة والرضا بالنزر اليسير؛ فهو في ذلك كمثل الإنسان البدائي عند لوكريتيوس يقتات على ما تخرجه الأرض من طعام بسيط ولا تتطلع نفسه إلى وسائل الترف والرفاهية، إلا أن حياته – مثلها في ذلك أيضًا – كمثل حياة الإنسان الأول، ليست بأية حال حياة مثالية تبلغ حد الكمال؛ فقد كانت لا تخلو من الهموم وغير معفاة من العناء. وعلى الرغم من أنها تشبه نوعًا ما العصر الذهبي، لكنها ليست بأي حال فردوسًا على الأرض. وعلى هذا النحو فقد جمع فرجيليوس بين عناصر كانت متعارضة في عالم لوكريتيوس على نحو ما يبدو من ختام الكتاب الثاني من ديوان "الزراعيات"، إذ أحيل إنتاج الأرض للطعام من

---

٣١ . ثمة تشابه كبير بين الآفات هنا وبين المهمة التي كلف سقراط بها حيث شبه نفسه بذبابة الماشية التي توقظ أهل أثينا من سباتهم العميق ويحض بني جلدته باستمرار على أن يظلوا على درب الفضيلة. ويوضح سقراط أن الإله بنفسه (أبوللو) هو من اصطفاه وكلفه بهذه المهمة. (Plato Apol. 29d–31c)

Quartarone L. , op. cit. 140-1

غير تدخل الإنسان على الزمن الماضي وكنتيجة لذلك صار العمل ضرورة حتمية. لا يقارب فرجيليوس بين الرأي المختلف فحسب، ولكن أيضًا يعزو "السلام الذي لا تعكر صفوه شائبة" (secura quies)، إلى الفلاح. [٣٢] وباستثناء التأليف الشعري، يتعارض العمل من منظور لوكريتيوس مع راحة البال (requies)، التي درج استعمالها للإشارة إلى الطمأنينة التي ينعم بها الفيلسوف وكذلك الآلهة والمرء حال هجوعه أو موته. [٣٣] في إحدى فقرات لوكريتيوس يضع السلام وراحة البال (secura quies) الذي ينعم به الأموات في مقابل العناء والكد (labor) الذي يعيشه الأحياء. [٣٤] مع أن راحة وسلام (quies) الفلاح من منظور فرجيليوس يقترن وجودها بالعمل والنشاط المتواصل، حيث إنه يتمتع بنفس مطمئنة (quies) غير أنه لا يتوقف عن العمل ليستريح (requies). إن الاكتفاء الذاتي للفلاح عند فرجيليوس لا يختلف عن سلام النفس (ἀταραξία) عند لوكريتيوس، بيد أنه لا يخلو تمامًا من الهموم، كما أنه عرضة باستمرار لتهديد حقيقي، إذ يتعين على الزارع أن يحافظ على اليقظة والحذر الدائم. في ختام الكتاب الثاني من "الزراعيات" يمثل مفهوم سلام النفس اللوكريتي النمط الروماني المتعارف عليه للفلاح المتمسك بالخلق القويم والمثابر على العمل الشاق. وهنا يطرح فرجيليوس نوعًا من الحل الوسط،

---

32. Verg. Georg. 2. 467

٣٣ . تشير الأبيات (الكتاب الرابع: ٤٥٤؛ ٨٤٨، ٩٠٧؛ ٩٩١؛ الكتاب الخامس، ٩٨٣) إلى الهجوع الذي يعد راحة من متاعب حياة اليقظة (curae)؛ وتشير الأبيات التالية إلى السلام الذي ينعم به الأموات حيث وردت الصفة (secura) لمرتين: (الكتاب الثالث: ٢١١؛ ٩١٠؛ ٩٣٩؛ ١٠٣٨)، وخمول الذكر الذي يوضع في مقابل الطموح (الكتاب الخامس: ١١٢٩). ويمكن مضاهاة ذلك بحياة غير الإبيقوري الحافلة بالقلق (الكتاب الثاني: ٩-١٣)، (الكتاب الثالث: ١٠٥٧-١٠٦٧)، وكذلك ضحايا الطاعون (الكتاب السادس: ١١٧٨).

34. Lucr. DRN 3. 939-943.

رغم أن الصراعات تنتقل سريعًا من نقطة إلى أخرى على مدار الأبيات التالية كما لو كانت تنتقل خلال الكتاب الثاني برمته: [٣٥]

agricola incuruo terram dimouit aratro:
hic anni labor, hinc patriam paruosque nepotes
sustinet, hinc armenta boum meritosque iuuencos.
nec requies, quin aut pomis exuberet annus
aut fetu pecorum aut Cerealis mergite culmi,
prouentuque oneret sulcos atque horrea uincat.
uenit hiems: teritur Sicyonia baca trapetis,
glande sues laeti redeunt, dant arbuta siluae;
et uarios ponit fetus autumnus, et alte
mitis in apricis coquitur uindemia saxis.
interea dulces pendent circum oscula nati,
casta pudicitiam seruat domus, ubera uaccae
lactea demittunt, pinguesque in gramine laeto
inter se aduersis luctantur cornibus haedi.
ipse dies agitat festos fususque per herbam,
ignis ubi in medio et socii cratera coronant,
te libans, Lenaee, uocat pecorisque magistris
uelocis iaculi certamina ponit in ulmo,
corporaque agresti nudant praedura palaestra.
hanc olim ueteres uitam coluere Sabini,
hanc Remus et frater; (Verg. Georg. 2. 513-533)

" في غضون ذلك كان الزارع يشق طريقه بالمحراث المقوس خلال التربة:

يستهل عمله الحولي، ومن ثم يمد وطنه وذريته بسبل

العيش، ويزود قطعان أبقاره وثيرانه الحريصة على أداء الواجب – بطعامها.

ليس ثمة راحة أو إرجاء للعمل الآن، ففصل الخريف محمل بالثمرات

وإن لم يكن كذلك فمحتشد بزيادة أعداد دوابه أو بأكوام غلال كيريس،

35. Gale M. , op. cit. pp. 171-3.

التي تغمر الحقول بإنتاجها وتكتظ بها مخازن الحبوب.

ثم يحل فصل الشتاء: فيجري طحن حبوب مدينة سيكيون بين حجري الرحى،

وتعود الخنازير إلى حظائرها قانعة بثمار البلوط، وما تنتجه الغابات من نبات القطلب؛ يوزع فصل الخريف غلاله على اختلاف أنواعها،

وفوق الصخور التي تغمرها الشمس بأشعتها تنعم زمرة مصقولة الحاشية بالدفء.

وفي تلك الأثناء التي يتعلق فيها أطفاله الأعزاء بعنقه للفوز بقبلاته،

يحافظ بيته الذي لا تثريب عليه على سلوكه المحتشم، وتتناطح الأبقار

ذات الضروع المتدلية المحملة باللبن، وفوق

سطح الأرض المعشوشب السعيد تتصارع الجديان البدينة.

ويقضي مالك الأرض نفسه عطلته فيستلقي فوق العشب،

يشعل الحطب لتدفئة فصل الشتاء ويجتمع ندماؤه على أقداح الخمر،

يسكبون الشراب ويبتهلون إليك، يا إله الخمر المعصور، يا ليناويوس،

ويدعو الرعاة بأن يضع علامة على شجرة دردار للإعلان عن بدء سباق رمي الرمح المجنح، أو يكشفون عن أطراف شديدة القدرة على الاحتمال للانخراط في مباراة مصارعة، ويحيون حياة مثل تلك التي كان يحياها الشعب السابيني منذ قديم الأزل، ومثل نمط معيشة ريموس وأخيه؛"

يوضح ديوان "في طبيعة الأشياء"علل الأشياء، أما ديوان "الزراعيات" فتعلمنا شؤون الزراعة، ولكن هدف كل من الديوانين الوصول إلى حياة قويمة؛ بالنسبة للوكريتيوس يقصد بالحياة القويمة الانسحاب من معظم نشاط الحياة السياسية الرومانية، أما بالنسبة لفرجيليوس فيعني بها الانسحاب من المدينة والانشغال

بزراعة الأرض في سبيل إعادة اكتشاف الفضائل الرومانية القديمة. لا تحصل المخلوقات بالأبيات السالفة الذكر على أسباب المعيشة من الطبيعة مباشرة – مثلما كان الأمر عليه عند لوكريتيوس،[٣٦] بل من يمدها بأسباب العيش هذه هو الفلاح، إذ يستهل فرجيليوس فقرته على نحو مفاجئ بـ "الزارع" (agricola) الذي بفضل عمله يتحدد اتجاه مصادر خصوبة الطبيعة وخيرها. فتحوُل الأشياء لا يجري من خلال دورة البناء والهدم في الطبيعة – مثلما كان الحال عليه بالنسبة للوكريتيوس – بل من خلال تعاقب فصول السنة، ومن خلال أعمال الحقل في كل موسم من مواسم الزراعة كدرس الحنطة وبذر البذور وعصر البذور الزيتية لاستخراج الزيوت وتجفيف الأعناب، وليس ثمة راحة (requies) من العمل لكن هناك نشاط مستمر وحركة دؤوب، غير أنها عند لوكريتيوس تمثل حركة الذرات، بينما عند فرجيليوس تنفق هذه الحركة من خلال العمل (labor).[٣٧]

لا يتوقف العمل (labor) على مجال النشاط الزراعي فحسب، فقد استعمله لوكريتيوس أيضًا لتصوير عدم جدوى الجهود المضنية التي يبذلها الحمقى من البشر في سبيل غايات لا طائل من وراءها؛ في استهلال الكتاب الثاني من ديوانه، يصور الشاعر نفسه ينظر من أعلى قلعة الفلسفة الإبيقورية الحصينة على حشود البشر غير المستنيرة وهم يتحركون على غير هدى كقطعان الماشية يتطاحنون في أغوار الوادي المظلم من أجل أطماعهم يبذلون جهدًا مضنيًا

36. Lucr. DRN 1. 249-263.
37. Betennky A. , The Literary Use of Animals in Lucretius' DRN and Virgil's Georgics, Diss. Yale Univ. (1972), pp. 165, 170.

(praestante labore, 12):[٣٨]

despicere unde queas alios passimque videre
errare atque viam palantis quaerere vitae,
certare ingenio, contendere nobilitate,
noctes atque dies niti praestante labore
ad summas emergere opes rerumque potiri.
o miseras hominum mentes, o pectora caeca! (Lucr. DRN 2. 9-12)

" من حيث يمكنك أن تلقى ببصرك من أعلى لترى الآخرين
يهيمون على غير هدىً فى سعيٍ خائب يلتمسون وسيلة للعيش.
يحاربون بعضهم البعض، ويتطاحنون نحو الصدارة،
يكدحون ليلًا ونهارًا ويبذلون جهدًا مضنيًا
ليبلغوا أعلى منازل السلطة ويحصلوا على الثروة.
يا لعقول البشر التعسة، يا لأفئدتهم العمياء! "

سبق أن رأينا أن العمل من منظور من تناوله من الأدباء السابقين على فرجيليوس والمعاصرين له يعبر عن قيمة إيجابية – بوجه خاص الكد والعناء في مجاليّ النشاط الزراعي والحربي – ويمثل عنصرًا حاسمًا في تقييم أرباب الفكر الروماني للشخصية الوطنية؛ فقد وجد الدأب والمثابرة على العمل المتواصل في مواجهة العقبات تقديرًا وإجلال كبير. يضع فرجيليوس هذه المنظومة المتوارثة من الثوابت الأخلاقية في مقابل اتجاهات الفكر في التراث الأدبي، وبوجه خاص الطمأنينة التي دعا لوكريتيوس إليها. إذ أدى انتقاد لوكريتيوس العنيف لأهم القيم الراسخة في ضمير مجتمعه إلى التشكيك في جدوى مثل ذلك الكفاح؛ فقد كان الهدف من نظم ديوانه تحرير أتباعه من أعباء(labores) الحياة العامة وكذلك من الهموم (curae)

38. Catto B. A., op. cit. p. 169.

الناجمة عن الخوف غير المبرر من الموت ومن الآلهة: [٣٩] في استهلال الكتاب الثالث – على سبيل المثال – يربط لوكريتيوس بين أطماع البشر والخوف من الموت، ويعد هذا الخوف الدافع الرئيس وراء التنافس على بلوغ المركز الاجتماعي الرفيع وتعدى حدود السلوك المعتدل في سبيل ذلك:

denique avarities et honorum caeca cupido,
quae miseros homines cogunt transcendere fines
iuris et inter dum socios scelerum atque ministros
noctes atque dies niti praestante labore
ad summas emergere opes, haec vulnera vitae
non minimam partem mortis formidine aluntur. (Lucr. DRN 3. 59-63)

" فضلاً عن ذلك فإن الطمع والرغبة العمياء فى الرفعة،
تدفع البؤساء من البشر إلى تجاوز حدود القانون،
وفى بعض الأحيان تورطهم كشركاء أو كمتواطئين فى الجريمة،
فيعملون ليلًا ونهارًا ويبذلون جهدًا مضنيًا
فى سبيل الوصول إلى أعلى منازل السلطة، إن شدائد الحياة
هذه يغذِّيها – إلى حد ليس بالهين – الخوف من الموت."

ويعد النشاط السياسي الباعث الرئيس على هذا العناء (labor)، حيث يضاهي لوكريتيوس المتاعب الجسدية التي يعانيها الباحثون عن المنصب بعذاب سيسيفوس الذي لا ينتهي: [٤٠]

nam petere imperium, quod inanest nec datur umquam,
atque in eo semper durum sufferre laborem,
hoc est adverso nixantem trudere monte
saxum, quod tamen <e> summo iam vertice rusum
volvitur et plani raptim petit aequora campi. (Lucr. DRN 3. 998-1002)

39. Gale M., op. cit. pp. 146f.
40. Catto B. A., op. cit. p. 170.

" لأن السعى وراء السلطة هو أمر لا طائل منه وصعب المنال،
كما أنه يتطلب دائمًا جهدًا شاقًا فى متابعة السعى،
وهذا كأن ندفع بمشقة بالغة إلى قمة تل شديد الانحدار
بالصخرة، التى سرعان ما تتدحرج لأسفل من أعلى
القمة، وتنشد فى سرعة بالغة سطح السهل المستوى. "

قد يكون العمل (labor) شاقًا (durus) أو عظيمًا (magnus)؛ فالنشاط السياسي الذي يزاوله الباحث عن المنصب أو سيسيفوس يعد عملًا كبيرًا، غير أنه ذهب سدى، تمامًا كما هو الحال في الجهود الضخمة التي يبذلها الفلاح وتضيع هباء، ولا تؤتي ثمارها بسبب الأرض القاحلة. (٤١)

تمثل عاطفة الحب (amor) أيضًا عناءً قاسيًا، لا جدوى منه:

Adde quod absumunt viris pereuntque labore, (Lucr. DRN 4. 1121)

" أضف إلى ذلك أنهم يستنفدون قواهم ويهلكونها بالمشقة."

هذا ويربط لوكريتيوس بين المعاناة (labor) والجهل، الذي اعتبره الدافع الأساسي للتعدي على حقوق الآخرين والحروب. وفي هذه المرة، كان الجهل بحدود السعادة الحقة هو ما يقود إلى التشاحن والتنافس الشديد:

Ergo hominum genus in cassum frustraque laborat
semper et <in> curis consumit inanibus aevom,
ni mirum quia non cognovit quae sit habendi
finis et omnino quoad crescat vera voluptas; (Lucr. DRN 5. 1430-1433)

" وهكذا فإن الجنس البشرى يكدح دائماً بلا جدوى وبلا هدف،
ويضيعون أعمارهم فى هموم جوفاء،
لأنهم بالتأكيد لا يعرفون حدود ما يجب أن يمتلكه
المرء، وإلى أى مدى يمكن للمتع الحقيقية أن تزداد.

41. Gale M., op. cit. p. 149.

جدير بالذكر أن لوكريتيوس استعمل كلًا من (in cassum) و(frustra) هنا للتأكيد على عدم جدوى هذا العمل (labor)، ومثل ذلك المرء يمضي حياته في عناء (labor) لا ينتهي إلا بالموت؛ وفي هذا السياق جعل لوكريتيوس الطبيعة تتحدث إلى الشيخ الهرم وتسائله لماذا لم يضع حدًا لحياته ولعنائه (labor):

non potius vitae finem facis atque laboris? (Lucr. DRN 3. 943)

" ولماذا لا تضع، كما هو حري بك، حدًا لحياتك وللشقاء؟"

هل قُدر على البشر أن يقاسون مثل تلك الحياة الحافلة بذلك الشقاء؟ يشرح لوكريتيوس أنه بمقدور المرء أن يقلص مقدار العناء – كما هو الحال بالنسبة للخوف – إلى أدنى حد ممكن؛ إذ يمكن بلوغ راحة البال فقط لو أنه تخلى عن حماقات غيره من البشر وتجنب خوض هذه التجارب الأليمة، وقنع بأن يحيا حياة بسيطة، فللمرء متطلبات قليلة للغاية:

ergo corpoream ad naturam pauca videmus
esse opus omnino: quae demant cumque dolorem,
delicias quoque uti multas substernere possint
gratius inter dum, neque natura ipsa requirit,
si non aurea sunt iuvenum simulacra per aedes
lampadas igniferas manibus retinentia dextris,
lumina nocturnis epulis ut suppeditentur,
nec domus argento fulget auroque renidet
nec citharae reboant laqueata aurataque templa,
cum tamen inter se prostrati in gramine molli
propter aquae rivum sub ramis arboris altae
non magnis opibus iucunde corpora curant,
praesertim cum tempestas adridet et anni
tempora conspergunt viridantis floribus herbas. (Lucr. DRN 2. 20-33)

" لذلك فإننا نجد أن متطلبات الطبيعة الجسدية قليلة للغاية،

فلا شيء أكثر ضرورة من إذهاب الألم،
أو ما يحقق كل أنواع المتعة، فالطبيعة نفسها لا
تحتاج سوى إلى ما يحقق المتعة، لكن ماذا يهم لو لم
يكن هناك حول المنزل تماثيل مصنوعة من الذهب
لشباب يمسكون بمشاعل بأيديهم اليمنى،
لتنير المآدب الممتدة طوال الليل؟ وماذا يهم لو أن
القصر لم يتلألأ بالفضة أو يومض ببريق الذهب،
ولو لم تكن السُّقُف المنقوشة والمطلية بالذهب تجلجل بألحان القيثارة؟
إن الطبيعة لا تفتقر إلى وسائل الترف هذه عندما يستلقي الرجال فى
صحبة فوق العشب الناعم على شفى جدول جارٍ فى ظل أفنان
شجرة باسقة، وينعشون أجسامهم بمباهج الحياة بنفقة زهيدة؛
وخاصة عندما يبتسم لهم الطقس ويلون فصل
الربيع الحشائش الخضراء بالزهور."

هذه الحياة البسيطة هي تلك التي كان يحياها الإنسان الأول؛ حيث تتكرر الأبيات (٢٩-٣٣) في الكتاب الخامس أيضًا (١٣٩٢-٦)، حيث كانت الحضارة في أطوارها الأولى، حين بدأ الإنسان في تعلم أولى خطوات الزراعة. [٤٢]

بالنسبة لفرجيليوس، يمثل النوع الأشد وطأة للعمل هو ذلك الذي فرضته الآلهة على البشر على وجه الأرض، قد يكون عقوبة لفعل ارتكبه البشر واعتبرته الآلهة انتهاكًا وتجاوزًا للحدود، ويعد هذا النوع من العمل (labor) هو المعاناة بحق، كالشدة التي حاقت بأريستايوس جزاء ملاحقته ليوريديكي – من غير مراعاة للآخرين؛ فلم يتسبب ذلك في فقدان أسباب عيشه فحسب (وتجسد في موت نحله)،

42. Catto B. A. , op. cit. pp. 170-2

بل تسبب أيضًا في تكليفه بمهام معينة كصراعه مع المسخ بروتيوس والتضحية بثور، هذا فضلًا عن الترحال الذي فُرض عليه، فهو جانب مهم من هذا النوع شديد الوطأة للعمل، وترتبط صعوبة هذا النوع من العمل بأنه يوشك أن يكون عملًا يتسم بالعنف والهلاك والموت (موت يوريديكي ونفوق النحل).[٤٣] وهناك نماذج أخرى لهذا النوع من العمل نجدها في استعمال فرجيليوس لمجازات حربية أو عبارات تنم عن استخدام القوة والإكراه عند تصويره العمل في الأرض ذات الطبيعة العنيدة. [٤٤] وبختام الكتاب الأول يقدم صورة قاتمة للحقول التي أُهملت جراء الانغماس في الحروب، وتجسد هذه الصورة ذلك النمط البغيض من العمل المحفوف بالمخاطر. إنه ذلك النوع من العمل الذي فُرض على كل من أريستايوس وأورفيوس بالكتاب الرابع؛ ففي كل من الحالتين يكون نجاح العمل عظيمًا وإخفاقه ذريعًا، فعندما أتم أريستايوس المهام التي كلف بها، كانت مكافأته سربًا جديدًا من النحل، ومن ثم استعادة أسباب معيشته. أما عندما لم يتمكن أورفيوس من الالتزام بالشرط الذي حُدد له، هوت يوريديكي بلا رجعة في أغوار هاديس. [٤٥]

وردت كلمة (labor) أربعة وثلاثين مرة بديوان "الزراعيات"، مرتان منها فقط تفيد معنى إيجابيًا، أما باقي الاستخدامات فإما أنها تقف على الحياد أو أنها تفيد معانٍ سلبية؛ بما في ذلك " لا ينتهي أبدًا " (improus, 1.146) ، و " شاق " (durus, 2.412; 4.114)، و " غير مستحب " (ingratus, 3.97)، و " جم أو كثير " (multus, 1.197) ، وغيرها من النعوت الأخرى التي تدل على كراهية البشر للعمل (labor). والاثنان وعشرون مرة تشير الكلمة بوضوح تام إلى أعمال الفلاح أو

43. Verg. Georg. 4. 315-328.
44. Ibid. 1. 160-99.
45. Ibid. 4. 111-13; Quatrarone L., op. cit. pp. 111-3.

الحيوانات، والتي عادة ما تكون مهامًا محددة، بيد أنه في ثلاث حالات فقط ورد العمل (labor) بالمعنى العام للكلمة. في المرة الأولى:

labor omnia vicit ……
improbus (Verg. Georg. 1. 145-6)
" تغلب العمل الشاق على سائر العقبات "

أما الاستخدامان الآخران، ففي الكتاب الثاني:

scilicet omnibus est labor impendendus ……. (Verg. Georg. 2. 61)
" على أية حال، كن على يقين من أنه يتعين على الجميع (الاشتراك في) تخمل أعباء العمل. "

والكتاب الرابع:

omnibus una quies operum, labor omnibus unus (Verg. Georg. 4. 184)
" حيث يخلد جميع أفراد الخلية للراحة من عناء العمل موسمًا، ثم يواصلون العمل موسمًا آخر."

وتعبر الاثنا عشر استخدامًا الأخرى للعمل عن طبيعة العمل الزراعي الشاقة؛ حيث تظهر بوضوح أيضًا في ميادين العمل الأخرى بالحياة، كأعمال الغزل والنسيج، وإقامةالمدن، وتناسل الكائنات الحية، فسائر هذه الأعمال تقتضي جهدًا كبيرًا، وقد تكون في بعض الأحيان مصحوبة بالألم والمعاناة: كالآلام المصاحبة للأمراض والشيخوخة، وجهود أورفيوس التي لم يحالفها التوفيق من أجل استعادة يوريديكي، والجهد الذي أنفقه فرجيليوس في تأليف ديوان "الزراعيات". لا يمكن إعفاء المرء من العمل (labor) أينما ذهب. (٤٦)

هذا مع أن لوكريتيوس استخدم الكلمة لاثنين وعشرين مرة فقط في ديوانه الأطول بكثير من ديوان "الزراعيات"، منها خمسة أمثلة فقط في سياق موضوع العمل

46. Betennky A., op. cit., pp. 113-5.

الزراعي. [٤٧] ومع ذلك، ففي كل مثال من هذه الأمثلة كان لوكريتيوس ينظر إلى العمل (labor) باعتباره غير ذي جدوى وأنه أمرًا مبغضًا. هذا، ويشير (labor, 3.452) بالكتاب الثالث من "الزراعيات" إلى الطاعون الذي هاجم القطعان. وفي (2.343) يشير إلى الجهد المبذول في النمو والتي قد لا تتحمله النباتات في أطوار نموها الأولى، وفي (3,68) صور فرجيليوس أقدار البشر في حدود تشاؤمية. أما في (4.492) فيطلق على سعي أورفيوس الذي لم يصادف توفيقًا في سبيل استعادة يوريديكي (effusus labor)؛ فقد سعى، بيد أن جهوده كانت تخطئ في إصابة الهدف؛ لقد لجأ أورفيوس إلى العمل (labor) امتثالًا لمشيئة جوبيتر، فتكبد عناء ترويض قوى الأرض، غير أن غايته في ذلك كانت العودة إلى سابق عهده، ولذلك أصبح عمله (labor) هباء، ولم يؤت بثماره المرجوة؛ إذ كان تحقيق أمله يعد نكوصًا لقوى الحضارة. [٤٨]

يعد العمل من منظور لوكريتيوس نضالًا ضد البيئة العنيدة يستنزف قوى المرء وغير ذي جدوى على الإطلاق ولا طائل منه؛ والحياة صراع لا يبعث على الكثير من الأمل فيما بين قوة الطبيعة (vis) والإنسان (vis humana).[٤٩] ويتمثل المخرج الوحيد من هذه المعضلة هو محاولة تخفيف الأعباء (labores) إلى أدنى حد ممكن ويتحقق ذلك عن طريق العيش حياة بسيطة، تفي فقط باحتياجات المرء الأساسية.[٥٠] ويحيد فرجيليوس في هذا الصدد عن نظرية لوكريتيوس؛ فيضفي على العمل بعدًا جديدًا؛ حيث يسقط عنه صفة عدم جدواه، غير أنه مع ذلك قرن استعمال كلمة (labor) بالمعنى المعدل لـ (improbus)، تلك الصفة التي أحسن

47. Lucr. DRN 5. 213, 1165, 1163; 2. 1160; 1. 213.
48. Catto B. A., op. cit. pp. 221f.
49. Lucr. DRN 5. 206-9.
50. Ibid. 2. 20-33.

لوكريتيوس استغلالها. وقد وجد مدلول التعبير (labor improbus) معالجات كثيرة وأثار قدرًا غير محدود من الدراسات وتبادل الآراء، ويعقب الشارح اللاتيني سرفيوس (Servius) على الصفة (improbus) على الوجه التالي:

vel magnus, vel nulli probabilis; enim est amator laboris; vel indfessus, adsiduus, sine moderation. (Serv, In Verg. Georg. Libr. 1.145)

" لا يعد عملًا عظيمًا، ومناسبًا يمكن التعويل عليه، وبطبيعة الحال ليس بالمرغوب فيه؛ ولا هو بالعمل المضني، لكنه لا ينتهي أبدًا، وليس هناك ثمة قواعد ثابتة تضبطه."

وقد سلم نقاد الأدب بصحة هذا التعريف للصفة (improbus) حيث تفيد معنى: "مطرد لا ينقطع"، "مستمر ومتواصل"، و "قاسٍ لا يلين" بوجه عام. وعرّف بعض النقاد الكلمة بوصفها "مصدرًا للشقاء"، وسبيلهم في ذلك أن (probus) تنطوي على معنى الاعتدال، وعلى ذلك فتدل (improbus) على التجاوز والإفراط. ويعتقد نفر آخر من النقاد أنه عندما تأتي الصفة (improbus) مصحوبة بكلمة "الحاجة الماسة" (egestas) فلا يقصد بها "متواصل لا ينقطع" بل "أمرًا ذميمًا بغيضًا". والحق أن ديوان فرجيليوس برمته يدور حول فكرة (labor omnia vicit improbus) ، وأن الصفة (improbus) تعبر دائمًا عن الانتقاص من القدر وتفيد معنى ازدرائي. وكثيرًا ما يأول فرجيليوس الصفة (improbus) من منظور معين؛ فنجد أن الإوزة الشرهة (improbus anser, 1.119) تعيق جهود الفلاح وتعطلها، ويصف الغراب الذي ينذر بهطول المطر بأنه (improba, 1.388) ، ويطلق على أفعى كالابريا الصفة (improbus, 3.431)، من ثم يبدو أن العمل(labor) في كثير من الأحوال (improbus) بالنسبة للفلاح المرهق من فرط المجهود.[٥١]

يطرح (Perret) تعريفًا فريدًا للتعبير (labor improbus):

51. Catto B. A., op. cit. pp.204-7.

" لا يمثل العمل (labor) جهود الإنسان المبذولة ولكنه التجارب والمحن التي تفرضها الآلهة عليه؛ وعلى ذلك فلا نعدُّ الانتصار انتصارًا للإنسان على بيئته المعادية له، بل انتصارًا للآلهة على تكاسل البشر وعلى إنفاقهم للوقت في التراخي، وذلك عن طريق تعريضهم لضروب من الشدائد والمحن المريرة."(٥٢)

ويعرف (Putnam) التعبير (labor improbus) على أنه "العناء أو المرض أو الممات" بالمعنى العام للكلمة، مشيرًا إلى أن (labor) إنما يكون متممًا "لضغوط الحاجة الماسة" (urgens egestas)، ومن خلال هذه الصلة التقاربية للحاجة يتخذ (labor) مدلولًا جديدًا حيث يصبح مؤهلًا لأن يكون جهدًا بناءً يثمر عنه ذلك العناء. هذا ويشير(Putnam) أيضًا إلى حقيقة أن كلًا من (labor) و (egestas) يعتبران في إنيادة فرجيليوس من الأسباب التي تودي بحياة الإنسان ويصفهما بأنهما رفيقين مروعين يوقعان في النفس الرهبة، إذ إنهما ينتظران البشر عند بوابة العالم السفلي، أي إنهما يفضيان إلى الهلاك والموت.(٥٣)

يعترض (Altevogt) على قول إن عمل (labor) المرء يقهر الصعاب ويتغلب على سائر العقبات (labor omnia vicit)، كما يعترض أيضًا على اعتبار أنه عناء متواصلًا لا ينقطع أبدًا بيد أنه يؤتي بثماره، وبالأحرى من ذلك يقترح أنه عقب انقضاءالعصر الذهبي ساد الكدح وشاعت الابتلاءات في كل مكان وسار العناء بدًا بيد الحاجة (egestas)، وفي النهاية خلص (Altevogt) إلى نتيجة مفادها أن هذا التعريف الذي اقترحه يضفي على الصفة (improbus) مدلولًا خاصًا.(٥٤)

52. Perret J., "The Georgics" in : Virgil: A Collection of Critical Essays. Prentice-Hall (1966) p.32.
53. Verg. Aen. 6. 276-7 ; Putnam M., Virgil's Poem of the Earth, Studies in the Georgics. (1979) Princeton, p.34.
54. William R., " Review of H. Altevogt, Labor Improbus: Eine Vergil studie," Orbis Antiquus 8 (1952) in CR n.s. (1954) 302-3.

والحق أن تعريف (Altevogt) ضرب صفحًا عن جوهر الزراعيات وهو تمجيد فرجيليوس للعمل والإعلاء من قدره. على أية حال كان فرجيليوس يناوب في ديوانه بين الاعتقاد في أن كفة الشر والشقاء في هذا العالم أرجح من كفة الخير والسعادة، وبين النزوع إلى رؤية الجانب المشرق من الأشياء؛ بين قوى الهدم وقوى التعمير، بين الإخفاق وبين النجاح. وعلى الرغم من ذلك يغلب على الديوان الجانب الإيجابي، وهو الحض على العمل، وليس إنكار وجود أية سعادة في المستقبل. وعلى ذلك يمثل (improbus) في هذا السياق التذمر الوقتي للمرء المرهق من العمل، ولكنه في نهاية المطاف يجني ثمرة كفاحه.[٥٥]

هناك مجال واحد فقط من النشاط، مع ذلك، يبدو أن العمل (labor) يندرج فيه تحت لواء الجانب الإيجابي؛ ففي الفقرات الثلاث التالية جاء ذكر لوكريتيوس لعمله الشعري على هيئة كلمات تعبر عن العمل(labor):

sed tua me virtus tamen et sperata voluptas
suavis amicitiae quemvis efferre laborem
suadet et inducit noctes vigilare serenas
quaerentem dictis quibus et quo carmine demum
clara tuae possim praepandere lumina menti,
res quibus occultas penitus convisere possis. (Lucr. DRN 1. 140-5)

" لكن مع ذلك فإن جدارتك والبهجة المأمولة للصداقة
الصافية بيننا هى التى تدفعنى إلى أن أتحمل أى جهد،
وتحثنى على أن أبقى الليالى البهيجة مستيقظًا، متساءلًا،
بأية كلمات وبأى شعر عساى أتمكن فى نهاية الأمر
أن ألقى أضواءً ساطعة أمام عقلك، لعلك تتمكن
بهذه الأضواء من أن تبصر بعمق الموضوعات الغامضة!"

55. Catto B. A., op. cit. p. 209.

Nunc age dicta meo dulci quaesita labore
percipe, (Lucr. DRN 2.730-1)
" والآن تدبر كلماتي التي نظمتها بجهد عذب
وتلقاها،.."

conquisita diu dulcique reperta labore
digna tua pergam disponere carmina vita. (Lucr. DRN 3. 419-20)
" وإنني سوف أتقدم بنظم أشعار جديرة بك
فقد سعيت خلفها لزمن طويل وتوصلت إليها بعد عناء لذيذ."

في هذه الأمثلة الثلاثة يعد العمل أمرًا جديرًا بالاحترام والتقدير، أو على أقل تقدير يعد أمرًا مرغوبًا؛ ففي الفقرتين الأخيرتين، ثبت أن العمل بالتجربة الفعلية هو أمر ممتع (dulcis)، وهناك دافعين على ذلك: إن عمل الشاعر – على حد قوله – تم الاضطلاع به في المقام الأول بدافع الصداقة، وهذا الدافع مقبول تمامًا من وجهة النظر الإبيقورية. أما الباعث الآخر فللإسهام في خدمة الحقيقة الإبيقورية. أي أن لوكريتيوس يطابق بين تصور الرومان القديم لمفهوم العمل بوصفه فضيلة ويطبق ذلك على نظم الشعر، حيث أخذ على عاتقه هذا العمل من أجل حق الصداقة ومن أجل إعلاء شأن الحقيقة قبل أن يكون في سبيل الصالح العام أو من أجل مصلحة شخصية ومع ذلك لا ينبغي أن نفهم هذا القول على أن العمل الشعري هو العمل النافع الوحيد في حين أن شتى ضروب العمل الأخرى معدومة الفائدة. ورغم ذلك فحقيقة أن استعمال لوكريتيوس لهذه الكلمة (labor) بطريقتين تناقض إحداهما الأخرى يفتح الباب على مصراعيه لمنظومة من التفسيرات بشأن طبيعة العمل

(labor) ومدلوله سواء أكان العناء والكد أمرًا محمودًا أم أنه خلافًا لذلك يعد شيئًا مبغضًا.[٥٦]

إذن فالعمل الشعري هو العمل الوحيد الذي يعلي لوكريتيوس من قدره؛ أي أن دراسة الفلسفة الإبيقورية وتعلمها يمكن أن تحل محل أعظم الأعمال التي جرى العرف عليها بوصفها المهمة الوحيدة الجديرة بالجهد المبذول في سبيلها. أما فرجيليوس فقد عالج العمل الشعري على مدار ديوانه بوجوه شتى، من ثم يصعب تحديد قيمته أو مدلوله على عكس العمل الزراعي. في البداية يوحد فرحيليوس بين العمل الأدبي وبين العمل بوجه عام؛[٥٧] إذ يعتبر الشعر فترة راحة وتسرية عن الفلاح المناضل وكفاح أسرته الذي لا يهدأ ولا يفتر. وأورفيوس أيضًا حاول بدوره أن يجد سلوان في إنشاد الشعر، بيد أنه لم يصادف نجاحًا ملحوظًا. ومع ذلك، يبدو أن الشاعر باستهلال الكتاب الثاني يتبنى دورًا أكثر فعالية؛ حيث يتوازى عمله مع عمل الفلاح؛ فيصور نفسه ينضم بالفعل إلى مزارعي بساتين الكروم وأشجار الزيتون:

…… iuuat Ismara Baccho
conserere atque olea magnum uestire Taburnum. (Verg. Georg. 2.37-8)

" تقر عيني بزراعة بزراعة جبل إسمارا ببساتين

الكروم وبأن أكسو مدينة تابرنوم العظمى بشجيرات الزيتون."

إن الفعل غير الشخصي (iuuat) والذي يرد في صيغة المفرد من غير ذكر لفاعله والذي يعني "من دواعي سروري" بحمل أصداء لدفاع لوكريتيوس عن الشعر بالأبيات التالية:

avia Pieridum peragro loca nullius ante
trita solo. iuvat integros accedere fontis

56. Gale M., op. cit. pp.152f.
57. Verg. Georg. 1. 293.

atque haurire iuvatque novos decerpere flores
insignemque meo capiti petere inde coronam,
unde prius nulli velarint tempora Musae; (Lucr. DRN 1. 926-30)

" أضع قدمى فوق مواضع لم تطأها قدم من قبل، تلك هى مواضع
مملكتهم " البيرية ". أية بهجة أشعر بها حين أرتاد منابعهم النقية
وأن أرتشف من مياهها! أية بهجة أشعر بها حين أقتطف
بواكير الزهور وأن أجمع – كى أزين جبينى – إكليل غار
بهى من حقولٍ لم تُقطف زهورها من قبل
لتوضع بأيادى الموسيات حول جبين أحد غيرى!"

يناضل لوكريتيوس من أجل تحرير عقول البشر عن طريق قوة التنوير الملازمة لأشعاره. وكذلك الحال بالنسبة لفرجيليوس الذي يعدل من تأكيد كاليماخوس على ضرورة روعة الأسلوب ورشاقة التعبير وحسن استعمال الكلمات، فأظهر خلافًا لذلك نماذج من إيجاز القول والانتقائية أمام دعوى أن للشعر فائدة تعليمية. إذن يمكن أن نفهم العمل الشعري من منظور فرجيليوس في هذا السياق بمعنى إنه من أجل النفع العام، وبمعنى نقاء الأسلوب الكاليماخي وشكل القصيدة المتقن. هذا ويعاود الفعل اللوكريتي (iuuat) الذهن في سياق مماثل بالقرب من نهاية الكتاب؛ وفي هذه المرة يتكرر الفعل لذلك يصير التوازي مع لوكريتيوس متكافئًا من غير زيادة أو نقصان:

et iuuat undantem buxo spectare Cytorum
Naryciaeque picis lucos, iuuat arua uidere
non rastris, hominum non ulli obnoxia curae. (Verg. Georg. 2.437-9)

" وتقر عيني برؤية شجيرات البقس المرفرفة من ضاحية كيتوروس
وإقليم ناريكس الذي تكثر فيه غابات الصنوبر الراتنجي، وتقر عيني أيضًا
برؤية أرض لا تتطلب محراثًا أو رعاية من الإنسان."

يعرب الشاعر هنا عن دعوى تتنافى مع دعواه السابقة في مستهل الكتاب؛ حيث كان يسعد بغرس الأشجار، أما هنا نجد أن الأشجار البرية تؤدي إلى شعوره بالبهجة، لأنها لا تحتاج إلى رعاية. إن الدور الفعال للمزارع المعلم تحول هنا إلى دور المتفرج السلبي، حيث يتمثل عمل (labor) الشاعر في التحرر من الهموم (curae). وتشير هذه الصور إلى مجاز لوكريتي آخر: الفيلسوف الذي يراقب من بعيد الأحداث غير متأثر بعواطفه، والذي يسعد بتحرره من الهموم والمتاعب (labores) التي تعكر صفو البشر، ويستقر في نفسه شعورًا بالأمن لتحرره من المجتمع المحيط به:

Suave, mari magno turbantibus aequora ventis
e terra magnum alterius spectare laborem; (Lucr. DRN 2. 1-2)

" يالها من سعادة، عندما تضرب الرياح العاصفة سطح مياه البحر
بينما ينظر شخص ببصره من الشاطيء إلى محنة شخص آخر."

يبدأ الكتاب التالي مع ذلك بالعودة إلى الشخصية العامة؛ إذ يتحول فرجيليوس من الانسحاب الهادئ من الحياة العامة؛ ويشارك في تمجيد انتصارات راعيه الأدبي. تمثل عربة الشاعر هنا مركبة حربية يحضر فيها عرائس الشعر سبايا من بلاد الإغريق.[٥٨] وهنا نجد التزامًا آخر بلوكريتيوس يتمثل في مجاز الحسد (invidia) الذي يرتعد خوفًا من العالم الأخروي. وهناك صدى آخر لشجب لوكريتيوس للأطماع السياسية نجده في تقريره عن الحروب الأهلية التي سبقت تأسيس النظام الجمهوري؛[٥٩] فالتشاحن على المنصب الرفيع يذهب هباء إذ إن الحسد (invidia) يصيب الإنسان المتفوق كالبرق ويلقي به في أغوار تارتاروس.[٦٠] فمن الخير إذن الانسحاب من هذا الصراع وأن تعيش مغمورًا خامل الذكر. يصور الشاعر نفسه

58. Verg. Georg. 3. 10-15.
59. Lucr. 5. 120-142; Gale M., op. cit. pp. 185-7.
60. Lucr. DRN 5. 1125-6.

يقود عربة الشعر عبر طرق عدة ويجتاز شعابًا ضيقة، وتعود المفردات التي استعملها هنا إلى التزام آخر بلوكريتيوس؛ حيث يردد فرجيليوس أبيات لوكريتيوس التي يستعمل فيها مجازًا ديونيسيًا:

nec me animi fallit quam sint obscura; sed acri
percussit thyrso laudis spes magna meum cor
et simul incussit suavem mi in pectus amorem
Musarum, quo nunc instinctus mente vigenti
avia Pieridum peragro loca …. (Lucr. DRN 1. 922-7)

" إننى أدرك تماماً كيف أن هذه الموضوعات مليئة بالغموض.
لكن أملًا كبيرًا فى ذيوع الصيت طرق قلبى بعصا سحرية،
وفى الوقت نفسه زرع فى صدرى حب الموسيات، حلو المذاق.
هذا الحب الذي هو بمثابة الحافز الذي يمنح روحى القوة كى
أضع قدمى فوق مواضع لم تطأها قدم من قبل، تلك هى مواضع
مملكتهم " البيرية. "

nec sum animi dubius uerbis ea uincere magnum
quam sit et angustis hunc addere rebus honorem;
sed me Parnasi deserta per ardua dulcis
raptat amor; iuuat ire iugis, qua nulla priorum
Castaliam molli deuertitur orbita cliuo. (Verg. Georg. 3.289-93)

" لا ريب عندي في مقدار أهمية الدعوى إلى القدرة على التعبير عن هذه الأمور
في شكل أعمال أدبية، وفي إخفاء الجلال على هذه الأشياء الزهيدة؛
غير أن العاطفة الساحرة تدفعني إلى قمم برناسوس
القاحلة، إذ تقر عيني عندما أجتاز خلال شعاب جبال لم يسلك
دروبها أحد من قبل ثم أعبر منها إلى منحدر كاستاليا طفيف الارتفاع."

لقد استخدم لوكريتيوس (furor) المتعارف عليه في التراث الشعري كوسيلة لعرض قوة الشعر كأداة لشرح الفلسفة الإبيقورية، أما فرجيليوس، فترجع نظرة أورفيوس التي أرسلها خلفه والتي كان لها ما لها من أثر مدمر – إلى الجنون (furor)، ولكنه جنونًا من ذلك النوع الذي يسود عالم الحيوان وتضيع جهود الفلاح في سبيل كبح جماحه. كما أن أورفيوس كان أيضًا منسحبًا من الحياة العامة؛ ومع ذلك – فعلى العكس من فلاح تارنتوم – لم يبلغ الهدوء النفسي بسبب عزلته هذه؛ فقد تكون ألحانه عزاء له، غير أنه لا سبيل إليها في علاج تفانيه ليوريديكي وإخلاصه لها الذي بلغ حد الألم. إذن على مدار ديوانه يرد فرجيليوس على قضايا بارزة طرحها لوكريتيوس كالإلهام الشعري وسلام النفس والتجرد واستقلال الرأي، في عمله (labor) المتسم بالمثابرة على بذل الجهد، أما إلهامه الشعري المعتمد على الإيمان أكثر من تأكيده على العقل يماثل عالم الطبيعة صعب المراس الذي يناضل الفلاح من أجل إصلاحه، رغم أنه يهدد دومًا بالانتكاس والعودة إلى الفوضى والهمجية. وفي بعض الأحيان يكتفي الشاعر بدور المشاهد غير المتفاعل مع الأحداث، أو أن ينسحب من الحياة العامة إلى عالمه الخاص، الذي يسوده السلام وينعم فيه بالاكتفاء الذاتي.[٦١]

يرى لوكريتيوس أن البشر وحدهم من يقاسون المشاق (labor)، أما الحيوانات فيحيون حياة سعيدة تخلو من أسباب الشقاء؛ وحتى تلك الحيوانات التي صورها بالكتاب الخامس، تلك التي تحظى برعاية الإنسان بسبب النفع الذي تقدمه، فتكون أيضًا معفاة من العمل (suo sine labore):

at levisomna canum fido cum pectore corda,
et genus omne quod est veterino semine partum
lanigeraeque simul pecudes et bucera saecla
omnia sunt hominum tutelae tradita, Memmi;

61. Gale M., op. cit. pp. 189-94.

nam cupide fugere feras pacemque secuta
sunt et larga suo sine pabula parta labore,
quae damus utilitatis eorum praemia causa. (Lucr. DRN 5. 864-70)

" لكن الكلاب خفيفة النوم ذات القلوب الوفية،

وكل فصائل الحيوانات التى تحمل الأثقال،

وكذلك الأغنام ذات الصوف، وسلالة الحيوانات ذات القرون،

كل هؤلاء دخلوا فى رعاية البشر يا مميوس.

وذلك لأنها نجحت فى تجنب الوحوش المفترسة ونشدت الحياة الآمنة،

فقد كان الغذاء الوفير يأتيها بلا عناء من جانبها،

هذا الغذاء الذي نقدمه إليها مكافأة لها مقابل خدماتها."

فالحيوانات في رأي لوكريتيوس يعيشون داخل نطاق دائرة الطبيعة ومن ثم فهي معفاة من العمل (labor). ويعد الإنسان المخلوق الوحيد الذي يُستثنى من هذه الدائرة لأنه يباعد بين نفسه وبين دائرة الطبيعة فيفسد نظامها، وبالتالي يخضع للعمل (labor) ليعيد إلى بيئته توازنها. أما بالنسبة لفرجيليوس فالعمل هو الوسيلة التي من خلالها يسمو الإنسان بذاته ويعلو فوق هامات باقي المخلوقات؛ لقد قضت مشيئة جوبيتر أن ينقضي العصر الذهبي ووضع حدًا لحالة السبات التي كان يتسم بها ذلك العصر حيث كان يتعذر تمييز الإنسان في هذا العصر عن باقي الحيوانات الأخرى، فكلف الإنسان بدور مهم، وبفضل جهوده يتمكن من استعادة الرخاء الذي كان يتسم به العصر الذهبي. وبينما كان لوكريتيوس يدافع عن نمط الحياة المتسم بالبساطة وعن التناعم مع دائرة الطبيعة الذي أوشك على أن يبلغ حد العودة إلى الاعتماد في الطعام على ثمار البلوط، فإن فرجيليوس يعلن أن الحياة

من دون العمل (labor) تؤدي إلى نكوص هذه الحياة التي سوف ترتد على عقبيها.[٦٢]

صور فرجيليوس طبيعة العلاقة بين حيوانات المزرعة وبين القائمين عليها من البشر من خلال (labores) و (curae)، فمن ناحية، صور الفلاح يتعهد حيواناته بالرعاية(curae) : إذ يتعين عليه انتخاب سلالات جيدة للتربية، ومستبعدًا منها كبيرة السن أو المعيبة، كما لا يتورع عن ذبح إحداها فداءً للقطيع، أما الدواجن صغيرة الحجم والنحل، فقد صورها على أنها تتطلب عناية فائقة لأنها ضعيفة وتعتمد على الإنسان، الذي من واجبه حمايتها من برودة المناخ وإبعادها عن المراعي ذات النباتات الشوكية والزود عنها ضد الحيات السامة وتحصينها من الأمراض وعلاجها منها إن أصابتها. وفي هذا الصدد نجد أن كلمة (cura) تتكرر كنوع من الفكرة المهيمنة على الكتاب الثالث حيث تنتقل من موضوع إلى آخر لتشير إلى الرعاية التي يجب أن يوليها الفلاح للحفاظ على سلامة دوابه. ومن ناحية أخرى، نجد أن الحيوانات نفسها تخضع للأعمال المرهقة (labores)، كما أنها عرضة للمتاعب والهموم (curae)؛ فتشارك الحيوانات الفلاح في أعمال الحقل أو تشارك مروضيها أهدافها؛ فالجواد بوجه خاص يكون مدفوعًا برغبة عارمة في تحقيق النصر على قدرٍ مساوٍ لمتطيه، فالترويض يعد عملًا (labor) يؤديه الحيوان على نحوٍ مساوٍ للمدرب.[٦٣] لكن كثيرًا ما تؤت جهود (labores) الحيوان ثمارها أو أنها لا تصيب الهدف المرجو منها، وفي هذه الحالة، تفيد الكلمة معنى المعاناة:[٦٤]

---

62. Catto B. A., op. cit. pp. 218f.

63. Verg. Georg. 3. 112; 182-4; 192-3.

لا يمكن إنكار حقيقة أن عملية إعداد الخيل لخوض الحروب أو لاجتياز السباقات لا تعد جزءًا من العمل الزراعي؛ لكن فرجيليوس في هذه المرة فقط يتجاوز حدود الفلاح المتواضعة ويقدم ضروب

et pluuia ingenti sata laeta boumque labores
diluit; (Verg. Georg. 1. 325-6)

" ومن خلال المطر الغامر تجرف المحاصيل السارة، وتضيع جهود الثور المضنية سدى؛"

يؤكد فرجيليوس هنا على الجهود التي يبذلها الثور في أداء الكثير من مهام العمل الزراعي، وكأنه ينظر إلى الدمار الذي حل بالمحاصيل التي أغرقتها السيول ويشاهده من خلال عيون هذا الثور.[٦٥]

وهناك روابط بين المعاناة (labor) والعاطفة الحسية (amor)، وبين العناء (labor) والأسقام. يعتبر لوكريتيوس الجاذبية الجنسية بين الحيوانات بخاصة ضرورية لاستمرار الأنواع،[٦٦] هذا وتخضع الحيوانات لألوان من العناء (labor) من منظور فرجيليوس – التي يقاسي ويلاتها عند لوكريتيوس العاشق من بني البشر، كما أن الحيوانات التي تتبع في لهفة فينوس فوق المروج الخضراء ووراء الأنهار بغية التناسل تعاود الظهور عند تصوير فرجيليوس للخيول وهي تسلك مسلكًا جنونيًا في موسم التزاوج، مع أن الفلاح يحتاج إلى تسخير هذه القوة إذا أراد أن ينجح في تربية حيواناته. هذا كما أن ويلات (labores) الرغبة الجنسية لا تختلف كثيرًا عن مشاق العمل (labor) الزراعي بوصفه معاناة كتلك الناشئة عن المرض والموت:

optima quaeque dies miseris mortalibus aeui
prima fugit; subeunt morbi tristisque senectus
et labor, et durae rapit inclementia mortis. (Verg. Georg. 3. 66-8)

" تمثل مرحلة الطفولة أفضل أوقات أعمار

التسلية لطبقة النبلاء الشغوفة باقتناء الخيل، إذ كانت علامة على الوضع الاجتماعي والسياسي عند الرومان منذ أقدم العصور. Catto B. A., op. cit. p.225

64. Gale M., op. cit. pp. 173f..
65. Catto B. A., op. cit. p.224-5.
66. Lucr. DRN 1. 20.

البشر التعساء؛ ثم تثقل كاهلنا الأسقام والشيخوخة الحزينة

والعمل الشاق، حتى تنقلنا قسوة الردى غير الرحيمة قسرًا إلى عالم الأموات."

لقد استعان فرجيليوس بمفردات لوكريتيوس في هذا الصدد؛ فالتعبير (miseris mortalibus) "أناس تعساء" يعد نقلًا عن لوكريتيوس الذي استخدم هذا التعبير ليؤكد على أن أسلوب حياة الإنسان البدائي كانت بائسة مثل حياة أولئك غير المهتدين إلى الفلسفة الإبيقورية. أما فرجيليوس فيشير بطرف خفي إلى أن البشر بوجه عام تعساء بسبب فناءهم – ذلك الرأي الذي يعارضه لوكريتيوس أشد المعارضة.(٦٧)

يطرح فرجيليوس مسألة المعاناة مرة أخرى وهذا في سياق الحديث عن عمل الحيوان حيث صور الثور الذي قهره المرض، فخرّ صريعًا وسط الحقل تاركًا من ورائه قرينه في النير والزارع المتحسر يبكيانه. إن ما حدث فقط هو أن شكل المعاناة (labor) قد تغير فتحول من مشاق العمل الزراعي إلى المعاناة من المرض ثم الردى، وهنا يثير فرجيليوس قضية بالغة الأهمية:

quid labor aut benefacta iuuant? quid uomere terras
inuertisse grauis? (Verg. Georg. 3. 525-6)

" فهل جنى ثمار عمله الشاق وحرصه على أداء الواجب وتفانيه فيه؟

وهل عاد عليه تقليبه للكتل الطينية شديدة الوطأة باستخدام المحراث؟"

إن انعدام وجود مصدر عون والشقاء والبؤس الذي يميز هذا الموقف يقترب من روح فقرة يصور فيها لوكريتيوس سائق المحراث القوي (rubustus) عندما تنتقل إليه عدوى الطاعون تفتر همته ويصير فقيرًا معدمًا لأنه أصبح عاجزًا عن العمل:

Praeterea iam pastor et armentarius omnis
et robustus item curvi moderator aratri

67. Gale M., op. cit. pp. 176f.

languebat, penitusque casa contrusa iacebant
corpora paupertate et morbo dedita morti. (Lucr. DRN 6. 1252-5)

" فضلاً عن ذلك فى ذلك العصر فإن راعى الأغنام وقائد
قطعان الماشية وأيضاً سائق المحراث المنحنى الشكل مفتول
العضلات كانوا يشعرون بالإعياء، فاحتشدت أجسادهم داخل
الأكواخ فى معزل مستسلمين للموت بتأثير الفقر والوباء."

في فقرة فرجيليوس نجد أن الثور مات بينما كان يعمل على خدمة الإنسان، هذا فضلًا عن أنه كان يحيا حياة مستقيمة نقية تتسم بالصلاح نائيًا بنفسه عن الانغماس في متاع الحياة وإطلاق العنان لشهواته:

…….. atqui non Massica Bacchi
munera, non illis epulae nocuere repostae:
frondibus et uictu pascuntur simplicis herbae,
pocula sunt fontes liquidi atque exercita cursu
flumina, nec somnos abrumpit cura salubris. (Verg. Georg. 3. 526-30)

" ولم تستطع عطايا باكوس من خمر ماسيكا
أو المآدب العامرة على الدوام أن تثير اهتمامهم:
إذ إنهم يقتاتون على أوراق الشجر والعشب البسيط،
ويمثل شرابهم الينابيع الرقراقة الصافية والغدران التي تنساب مياهها،
وليس ثمة هم يقض هجوعهم المطمئن."

لقد أدى موت الحيوانات التي كانت تعمل في الحقول إلى ضياع الجهود المبذولة هباء وتعطل الإنتاج. وتعد هذه إحدى العقبات التي من العسير التغلب عليها والتي وضعها جوبيتر في طريق الإنسان عساه يبتكر الحرف والمهارات وفنون الطب، فتقرير طاعون الماشية بوجه خاص يقتضي الحال وجود علوم أعظم قيمة ونفعًا وهي العلوم الطبية.[٦٨]

68. Catto B. A., op. cit. pp.226-31.

سبق وأن تطرقنا إلى علاقة الفلاح بدوابه، تلك الرابطة التي صورها لوكريتيوس كنوع من العقد الاجتماعي أو اتفاقية على حسن المعشر: تفوض فيها حيوانات الأحمال والماشية والأغنام أمرها إلى رعاية الإنسان نظير أن يكفل لها توفير العلف من دون بذل عناء من جانبها.[٦٩] قد يوصم لوكريتيوس بشيء من المراوغة في هذا الصدد؛ إذ يبدو أن الصفقة مغبون فيها؛ لأنه في واقع الحال الحال لا تباشر الماشية وحيوانات الأحمال عملها نظير الطعام، هذا فضلًا عن أن الشاعر أغفل ذكر حقيقة أن الماشية والأغنام إنما مقضي عليها في الغالب في نهاية المطاف باقتيادها إلى المذبح. أما فكرة الشراكة فيما بين الفلاح ودوابه من منظور فرجيليوس فتتجه إلى تقليص الهوة بين الإنسان والحيوان؛ ففي الكتاب الأول يمثل ثور المحراث شريكًا حقيقيًا يشاطر الفلاح أعمال الحقل، فيئن إذ يدفع المحراث الثقيل، كما يتهدد جهود كل من الفلاح وثوره على حد سواء مخاطر الآفات الزراعية والحشائش الضارة وسوء الأحوال الجوية، إلى آخره من الظروف غير المواتية.[٧٠] وفي ختام الكتاب الثاني نعت الثور بالصفة "الجدير بحق" (meritosque iuuencos) ورفعه الشاعر إلى مكانة تضارع أي عضو من أعضاء أسرة الفلاح بوصفه محط اهتمام الفلاح ورعايته:

hic anni labor, hinc patriam paruosque nepotes
sustinet, hinc armenta boum meritosque iuuencos.(Verg. Georg. 2. 514-5)

" إنه عمله السنوي، وعلى هذا المنوال يسدي الفلاح صنيعًا لوطنه

ولذريته وأحفاده الصغار، وكذلك لقطعان أبقاره وثوره الجدير بالتقدير."

وفي الكتاب الثالث، نجد أن الجياد والماشية والأغنام والماعز مناط رعاية (cura) الفلاح. ومع ذلك قد تفضي الظروف في بعض الأحيان إلى جفوة المعاملة؛ فليس

69. Lucr. DRN 5. 869.
70. Verg. Georg. 1. 46, 118,325, 210,

ثمة شفقة نحو الحيوان إذ تداهمه الشيخوخة،[٧١] أو إذا خرج النسل غير مطابق للمواصفات المطلوبة في تربية السلالات، كما يتحتم إراقة دماء الحيوان المصاب بمرضٍ معدٍ أو القيام بنحره اتقاء انتقال العدوى إلى باقي أفراد القطيع. وتعيد النغمة العقلانية الغالبة هنا إلى الأذهان وصية كاتو:

boues uetulos, armenta delicula, oues deliculas, lanam, pelles, plostrum uetus, ferramenta uetera, seruum senem, seruum morbosum, et si quid aliut supersit, (Cat. De Agr. 2.7.5)

" يتعين على المزارع بيع الثور العجوز، والماشية الشوهاء، والأغنام الكليلة ...، هذا فضلًا عن العبد الهرم، وكذلك العليل، علاوة على كل شيء آخر لا يُرجى منه نفعًا."

في حين كان كاتو يتسم بالغلظة، فإن فرجيليوس يؤكد على الأواصر المتينة بين الإنسان والحيوان، التي تتألف بفضل اشتراك كل منهما في الخضوع لأحكام الشيخوخة والمرض والموت:

optima quaeque dies miseris mortalibus aeui prima fugit; .(Verg. Georg. 3. 66-7)

" تعد أفضل أيام المخلوقات الفانية البائسة مستهلًا للأشياء سريعة الزوال."

هناك تراث طويل في الفكر القديم بشأن رفض شعيرة تقديم الأضاحي وأكل اللحوم؛ إذ يحبذ بعض الفلاسفة منذ فيثاغورث الاعتماد على الغذاء النباتي لأن روح الإنسان قد تحل بالفعل في جسد حيوان ما.[٧٢] ويحذر إمبيدوقليس من مغبة هذا العمل الذي يتسم بالقسوة، ويعتبره أقصى درجات انتهاك الحقوق.[٧٣] ويتفق في الرأي مع فيثاغورث في أن روح الإنسان ربما قد تحل في جسد أحد الحيوانات،

71. Verg. Georg. 3. 102.
72. Vita Pyth. 24. 108.
73. D-K. fr. 139.

ويعد هذا باعثًا على العزوف عن أكل لحوم الحيوانات، وقد صور هذه الفكرة في شذرة لأحد الآباء يضحي عن جهالة منه بحيوان حلت فيه روح ابنه الفقيد:

μορφὴν δ' ἀλλάξαντα πατὴρ φίλον υἱὸν ἀείρας
σφάζει ἐπευχόμενος μέγα νήπιος· οἱ δ' ἀπορεῦνται
λισσόμενον θύοντες· ὁ δ' αὖ νήκουστος ὁμοκλέων
σφάξας ἐν μεγάροισι κακὴν ἀλεγύνατο δαῖτα.
ὡς δ' αὔτως πατέρ' υἱὸς ἑλὼν καὶ μητέρα παῖδες
θυμὸν ἀπορραίσαντε φίλας κατὰ σάρκας ἔδουσιν.(Emped. fr. 137)

" لسوف يرفع عاليًا الأب ابنه الغالي في هيئته المتحولة ويقطع حلقومه ذلك الأحمق الكبير، بينما يتضرع بالابتهالات للأرباب. وسيتوالى توافد الحضور فيرفعون الضحية التي تستدر العطف بتوسلاتها، بيد أن الأب أصمّ أذنيه عن صرخات الاستغاثة، وعقب الانتهاء من النحر أعدّ في إيوانه وليمة مشؤومة. وعلى هذا المنوال نفسه يمسك الابن بأبيه والأبناء بأمهم فيسلبونهم نعمة الحياة ويأكلون لحومهم العزيزة."

يبدو أن اعتراض إمبيدوقليس على التضحية بالحيوانات كان له عميق الأثر في لوكريتيوس؛ فنحن على دراية تامة بتقريره ذائع الصيت الذي يتناول مسألة التضحية بإفيجينيا، والذي يشغل استهلال الكتاب الأول، ويذيله بالبيت الشهير:

tantum religio potuit suadere malorum. (Lucr. DRN. 1. 101)

" لقد استطاعت المعتقدات البالية أن تقنع الناس بارتكاب شرور كثيرة،"

في هذه الحالة كانت الأضحية من البشر، والأمر الأشد بشاعة في هذه الأبيات أن إفيجينيا قد عوملت معاملة الحيوان. وفي كل من الفقرتين – فقرة لوكريتيوس وشذرة إمبيدوقليس – نجد أن الأب يضحي بابنه. وقد عزز لوكريتيوس هذه الفكرة في كتابه الثاني وذلك عن طريق تقديم صورة بالغة الأثر لبقرة ثكلى تبحث سدى عن صغيرها الفقيد الذي قد تم تقديمه لتوه قربانًا:

nam saepe ante deum vitulus delubra decora

turicremas propter mactatus concidit aras
sanguinis expirans calidum de pectore flumen;
at mater viridis saltus orbata peragrans
novit humi pedibus vestigia pressa bisulcis,
omnia convisens oculis loca, si queat usquam
conspicere amissum fetum, completque querellis
frondiferum nemus adsistens et crebra revisit
ad stabulum desiderio perfixa iuvenci, (Lucr. DRN. 2. 52-60)

" أسوق إليك مثالاً شائعاً، أمام أضرحة الآلهة المقدسة
نجد عجلاً يسقط على الأرض مذبوحاً بجانب المذابح
المحملة بالبخور المحترق، ومن صدره ينفجر سيل من الدماء،
بينما أمه التى حُرمت منه، تهيم عبر الممرات الخضراء
فى الغابات، تفحص الأرض وتتعرف على آثار أقدامه
التى طبعها على الأرض بحوافره المشقوقة، عيناها تطوفان
هذا الطريق وذاك فى بحث عن صغيرها المفقود. تتوقف وتتفحص
بعينيها الأشجار العتيقة المورقة وهي تتفجع. وغالبًا ما
تعود إلى الحظيرة بجرح لا يندمل وبحنين إلى صغيرها."

تصور هذه الفقرة حزن البقرة الأليم، وهذا متعمد من جانب الشاعر ليؤكد على أن التضحية بالحيوانات تعد قسوة، هذا فضلًا عن عدم جدواها على حد ما أوضح في تنديده بممارسة هذه الطقوس التي جرى العرف عليها. (٧٤)

إلى أي مدى أثر هذا التراث الأدبي في ديوان "الزراعيات"؟ في أمثلة ليست بالقليلة صور فرجيليوس مدى حرص الفلاح على دوابه ورعايته لها. وكلما سرنا قدمًا في القصيدة كلما ازداد التحامل على التضحية بالحيوانات؛ ففي الكتاب الأول، في مشهد رعوي للاحتفاء بقدوم فصل الربيع، لا يكتفي الرعاة بتقديم قربان من الخمر

74. Lucr. DRN 5. 1198-1203.

أو اللبن فحسب، بل ينحرون أحد الحيوانات قربانًا للربة كيريس، ولم يطلق على الأضحية صفة توحي باقتيادها بل صُورت تطوف بين المحاصيل كما لو كانت تتصرف بمحض إرادتها:

circum …. aut hostia fruges (Verg. Georg. 1. 345)

" دع الأضحية (السعيدة تطوف) بالمحاصيل الزراعية… "

أما في الكتاب الثاني فيجري التضحية بذكر الماعز في احتفالات باكوس؛ فقد أورد القصة الاستطرادية للتفسير السببي لمسألة التضحية في حد ذاتها؛ إذ يقدم الفلاح الماعز قربانًا لباكوس عقابًا له إذ فتكت أسنانها بالنبات الأثير لدى الإله – وهو الكروم. وفي ختام الكتاب يصور فرجيليوس الثور العامل على المحراث بوصفه شريكًا للفلاح في العمل الزراعي؛ فهو خادم أمين جدير حقًا بمثوبة عادلة. هذا ويضاهي فرجيليوس أيضًا بين حياة الفلاح المعاصر له وبين تلك الحياة التي عاشها ذات مرة رومولوس وشقيقه ريموس وبين حياة إنسان العصر الذهبي:

ante etiam sceptrum Dictaei regis et ante
impia quam caesis gens est epulata iuuencis,
aureus hanc uitam in terris Saturnus agebat; (Verg. Georg. 2. 536-8)

" قبل عصر الملك الكريتي (جوبيتر)، وقبل أن يأتي عصر

تولم فيه ذرية غير ورعة وليمة تتألف من ماشية منحورة

دعا ساتورنوس الذهبي على هذا النحو إلى شكل من أشكال الحياة على وجه الأرض."

تناول أوفيديوس نشأة شعيرة التضحية بالحيوان في ديوان "التقويم"،[٧٥] غير أنه يعود في ديوان "التحولات" فيسأل في دهشة كيف يتأتى للحملان البريئة سليمة الطوية والثور الذي يتحمل عناء جر المحراث أن يستحقا الموت:

quid meruistis oves, placidum pecus inque tuendos
natum homines, pleno quae fertis in ubere nectar,

75. Ov. Fast. 1. 337-456.

mollia quae nobis vestras velamina lanas
praebetis vitaque magis quam morte iuvatis?
quid meruere boves, animal sine fraude dolisque,
innocuum, simplex, natum tolerare labores?(Ov. Met. 15. 116-121)

" أنىّ لك أيها الحمل أن تستحق هذا، أنت من خلق أفراد قطيعك المسالمون
إنما لخير الإنسانية، من تنتفخ ضروعهم بسائل الحياة،
من يزودنا بالأردية الوثيرة المصنوعة من صوف جززك
فتسدون عونًا لنا أثناء حياتكم أكثر مما يكون الحال عليه من بعد مماتكم؟
وأنىّ للثور أن يستحق هذا، تلك المخلوقات البراء من الغدر والخداع، إذ إنها
أنيسة الطباع، خالصة الطوية، فضلًا عن كونها خُلقت لتحتمل أعباء العمل
الشاق؟"

يبدو أن أوفيديوس يعتبر أن نظرية الجريمة والعقاب لا تعد تبريرًا لقتل المرء شريكه في العمل. وفي الكتاب الثالث يبدي فرجيليوس ارتيابًا فيما يتعلق بشرعية هذا النسك الديني؛ فالطاعون جعل من محاولة استرضاء الآلهة أمرًا مستحيلًا؛ إذ إن الحيوانات تلقى حتفها قبل أن يتسنى ذبحها قربانًا، وجدير بالذكر أن تصوير هلاك الأضحية التي كان يعتزم تقديمها قربانًا يعيد إلى الأذهان تقرير لوكريتيوس الذي يصور التضحية بإفيجينيا. وفي الكتاب الرابع مازال التأكيد قائمًا على قسوة ذبح الحيوانات ومدى تألم هذه المخلوقات، إذ يروي الشاعر تفاصيل مخيفة حول إزهاق روح القرابين من الحيوانات المنحورة (βουγωνία).[٧٦] وبنهاية الكتاب تم مقايضة حياة الثور نظير حياة الكثير من المخلوقات الأخرى؛ إذ اندفعت أعداد غفيرة من النحل خارجة من دماء الحيوان الذبيح، فقد برر قتل حيوان واحد في سبيل غاية أسمى، يعد فيها الموت ضروري لخلق حياة جديدة. يحمل هذا الرأي الطابع

76. Verg. Georg. 4. 295-314.

اللوكريتي.[٧٧] بيد أن وضع قصة أريستايوس الاستطرادية جنبًا إلى جنب مع أسطورة أورفيوس يقوض النهاية التي تعبر عن المواساة؛ إذ إن الحزن والأسى الذي استبد بأورفيوس جراء فقدانه حبيبته يوريديكي أبطل فكرة أن بقاء السلالة والحفاظ على النوع أو أن صالح المجتمع قد يعوض عن فقدان أحد أفراده.[٧٨] يضفي فرجيليوس على العمل وجودًا ماديًا، فيجسده في صورة الآلهة الراعية لحياة الريف، وقد صورهم في مجموعتين: تمثل المجموعة الأولى المبدعون الأوائل من ابتكروا العلوم التطبيقية وعملوا على تطويرها مثل ليبر وكيريس ونبتونوس وأريستايوس ومينرفا وتريبتوليموس، أما المجموعة الأخرى فالآلهة التي تكون في عون الفلاح وتجسد سخاء الطبيعة كالفاوني والدرياديس (Dryades) وبان وسيلفانوس. تمثل المجموعة الأولى المعرفة واكتساب المهارات أي أنها ترتبط بالعمل (labor)، أما المجموعة الأخرى فتعكس مظاهر خصوبة الأرض أي تتصل براحة (otium) الإنسان من عناء العمل. وجدير بالذكر أن فرجيليوس صور مينرفا بوصفها مبتكرة زراعة الزيتون (oleaeque ….. inventrix, 1. 18-9) واضعًا إياها في دائرة العمل (labor) تارة بفضل اكتشاف هذا النوع من الزراعة الذي يرجع إليها، وفي دائرة الفراغ من عناء العمل والخلود إلى الراحة (otium) تارة أخرى لأن زراعة أشجار الزيتون لا تقتضي كثيرًا من الرعاية.[٧٩]

يورد توماس (Thomas) ملاحظة وجيهة بخصوص أبيات فرجيليوس التي تتناول زراعة الزيتون والعناية بها،[٨٠] معربًا عن أن كلام فرجيليوس في الكتاب الثاني فيما يتعلق بزراعة الكروم التي تقتضي مجموعة من الخطوات المعقدة يتنافى مع حديثه عن الرعاية البسيطة لزراعة الزيتون:

77. Lucr. DRN 3. 964-71.
78. Gale M., op. cit. pp. 102-9.
79. Quartarone L., op. cit. p. 128; 133.
80. Verg. Georg. 1. 18-9; 2. 420-5.

scilicet omnibus est labor impendendus, et omnes
cogendae in sulcum ac multa mercede domandae. (Verg. Georg. 2. 61-2)

" لا شك في أن يجب أن يستولي العناء عليهم جميعًا، إذ يتعين عليهم
أن يشقوا طريقهم بالقوة عبر الحقول ويذللوا الأرض بتكلفة كبيرة."

وقد استخدم فرجيليوس الصيغة المصدرية ليؤكد على مدى صعوبة زراعة الكروم، ويبلغ هذا الموضوع ذروته في الأبيات (٣٩٧ – ٤١٩) حيث يخلص الشاعر إلى نتيجة مفادها أن أعمال الحقل في موسم زراعة الكروم لا تنتهي أبدًا:

…. redit agricolis labor actus in orbem,
atque in se sua per uestigia uoluitur annus. (Verg. Georg. 2. 401-2)

" من ثم فإن أعمال الحقل تعود من جديد وكأنها تدور في دائرة،
مثلها في ذلك مثل الحول الذي يرتد على عقبيه ويعيد الكرة مرة أخرى."

ويرمز فرجيليوس بهذا التناقض بين زراعة الكروم وزراعة الزيتون إلى الهوة الواقعة بين العمل (labor) والراحة (otium)، ويظهر هذا بوضوح في عدم اهتمامه بأشجار الزيتون وراعيتها مينرفا، حيث ورد ذكرها لمرتين فقط في ديوانه.[٨١]

هذا ويربط فرجيليوس في الأبيات التالية العصر الذهبي بفكرة العمل أكثر من ربطه بالراحة والفراغ من العمل، وسبيله في ذلك تصوير المعارك التي خاض جوبيتر غمارها مع المردة، وكأنه يعلن أنه حتى أثناء عصر الراحة (otium) كان على جوبيتر نفسه أن يكد ويعمل للدفاع عن مركزه:

……. tum partu Terra nefando
Coeumque Iapetumque creat saeuumque Typhoea
et coniuratos caelum rescindere fratres.
ter sunt conati imponere Pelio Ossam
scilicet atque Ossae frondosum inuoluere Olympum;
ter pater exstructos disiecit fulmine montis. (Verg. Georg. 1. 278-283)

81. Verg. 1. 18; 4. 246; Quartarone L., op. cit.p.133

" ثم بعد عناء كبير حملت الأرض في بطنها
كيوس وإيابيتوس والمارد تيفويوس
والآخوان اللذان تآمرا على تقويض أركان السماء.
إذ حاولا ثلاثًا وضع جبل أوسّا فوق جبل بليون
ومن أعلى جبل أوسّا حاولا زحزحة جبل الأوليمبوس الأخضر:
ولمرات ثلاث يقذف الرب (جوبيتر) بصاعقته جبالهم المكومة فوق بعضها."

كما يربط فرجيليوس أيضًا تريبوليموس بالعمل وذلك عن طريق استخدام اسم الفاعل (monstrator, 1.19) إذ يحمل مدلولًا يشير إلى من يقوم بالعمل وذلك من خلال المقطع الأخير(-tor) الذي يذيل الأفعال التي تقتضي بذل الجهد.[٨٢]

تعرض الأبيات التالية لوحة خلابة لحياة الراحة عقب الفراغ من العمل، يعيد فيها الشاعر إلى الأذهان حياة تماثل تلك الحياة التي كان يعيشها الرومان فيما مضى – في حقبة تمتد إلى زمن قبل حتى عصر ساتورنوس الذي أطلق على هذه الأرض اسمه (Saturnia tellus) – غير أنها تماثل أيضًا حياة الشعب السابيني الخشنة، والحياة في سهل إتروريا الشاسع، حياة رومولوس وريموس:[٨٣]

hanc olim ueteres uitam coluere Sabini,
hanc Remus et frater; sic fortis Etruria creuit
scilicet et rerum facta est pulcherrima Roma,
septemque una sibi muro circumdedit arces.
ante etiam sceptrum Dictaei regis et ante
impia quam caesis gens est epulata iuuencis,
aureus hanc uitam in terris Saturnus agebat;
necdum etiam audierant inflari classica, necdum
impositos duris crepitare incudibus ensis. (Verg. Georg. 1. 278-283)

" حياة كتلك التي كان يحياها الشعب السابيني منذ سالف العصور،

82. Quartarone L., op. cit. p. 145; 134.
83. Ibid. p. 172.

حياة كحياة ريموس وأخيه، حياة بفضلها أصبح سهل إتروريا
ذا بأس حقيقي، ونالت روما شهرة ومجدًا بين شعوب العالم،
رغم أنها كانت مدينة تقف بمفردها بين تلال سبعة.
لكن حتى قبل عصر من نشأ في جبل ديكتي الكريتي (جوبيتر)
وقبل أن تولم ذرية غير ورعة وليمة قوامها الثيران المنحورة،
هذه هي الحقبة التي أمضاها ساتورنوس على الأرض إبان العصر الذهبي.
حيث لم يكن صوت نفير الحرب قد طرق بعد أسماع أناس ذلك العصر،
لا، ولم يكن صريف السيف فوق سندان الحداد الصلب قد طرق أسماعهم."

فأسلوب حياة الفلاح إذن هو السبيل للعودة للإستقرار الذي كان ينعم به أناس العصر الذهبي. لكن هل يعد العمل في حد ذاته غاية؟ تقول الباحثة (Stehle):
" على الرغم من ذلك لا يعد العمل بوصفه غاية (telos) مفهومًا مرضيًا، وإنما العمل على بلوغ حياة الدعة والراحة التي كان يتسم بها ذلك العصر .... وإن كان العمل وحده هو ما يعيد إلى المرء المنزلة التي فقدها، من ثم لا يعتبر بالنسبة لأناس العصر الذهبي شيئًا مطلوبًا في حد ذاته. هذا كما أنه قبل أن يبدل جوبيتر نمط الحياة على وجه الأرض، كان البشر يشبهون النحل لا فرق بينهم، وبعيدين تمامًا عن تفرد الشخصية؛ من ثم يعد الخلو من العمل (otium) الباعث الأول على فرض جوبيتر العمل (labor) على حياة البشر، إذ كان الفراغ يفضي إلى التراخي والكسل، لذا فإدخال العمل في حياة البشر كان رد فعل من لدنه للحالة التي كان عليها أناس ذلك العصر من السبات والركود الذي يفضي إلى خمول الذكر. إذن أتاح العمل للإنسان بلوغ قدرًا عظيمًا لم يتأت له أثناء العصر الذهبي. وعلى هذا النحو فالعصر الذهبي أو حياة الراحة (otium) التي عاشها البشر قبل فرض التغيير على العالم –

صارت غاية نعمل من أجل بلوغها، وحلمًا يناضل المرء من أجل تحقيقه، والحياة الناعمة (otium) التي يعمل الإنسان على بلوغها في المستقبل، وليست بحياة الفراغ (otium) التي تنسب إلى زمن الماضي والتي لا يمكن استرجاعها على الإطلاق. هذا وقد أسفر العمل عن اكتشاف العلوم التطبيقية وهي السبل المستخدمة لتوفير كل ما هو ضروري لمعيشة الناس ورفاهيتهم، وبالتالي تتاح الفرصة للاستمتاع بالراحة (otium) التي تختلف تمام الاختلاف عن راحة (otium) ما يُعرف بالعصر الذهبي."[٨٤]

يؤكد فرجيليوس فيما يعرف بـ " العودة إلى ما بدأه من قبل " (praeteritio) – على أنه لم يفرغ بعد من عمله (labor, 4.116) إذ إنه سوف يمدنا بالكثير حول طرق الزراعة الناجحة؛ وفي هذا السياق يورد قصة فلاح كوريكيا الطاعن في السن، الذي يعد مثالًا لحياة الفراغ والدعة (otium)، فيتحول فرجيليوس من فكرة عناء العمل إلى الفراغ من العمل والراحة:

namque sub Oebaliae memini me turribus arcis,
qua niger umectat flauentia culta Galaesus,
Corycium uidisse senem, cui pauca relicti
iugera ruris erant, nec fertilis illa iuuencis
nec pecori opportuna seges nec commoda Baccho.
hic rarum tamen in dumis olus albaque circum
lilia uerbenasque premens uescumque papauer
regum aequabat opes animis, seraque reuertens
nocte domum dapibus mensas onerabat inemptis.
(Verg. Georg. 4. 125-133)

" أذكر أنه ذات يوم عند أسوار مدينة (الملك الإسبرطي) أويبالوس،
في تلك البقعة حيث يروي نهر جالايسوس الداكن حقول القمح الضارب إلى
الصفرة، رأيت عجوزًا من كوريكيا كان يملك قليلًا من الأطيان،

84. Stehle, E. " Virgil's Georgics: The Threat of Sloth," TAPhA 104 pp. 352; 362.

وكانت أرضًا غير مرجوة الفائدة، فلم تتمتع بالخصوبة ليقوم بزراعتها
أو تصلح للرعي أو كانت حتى ملائمة لزراعة شجر كروم باكوس:
وعلى ذلك قام بغرس نبات الكرنب هنا وهناك بين نبات العليق
والزنبق الأبيض ونبات زهره مختلف الألوان والخشخاش ذي البذور الخفيفة
ونعم بثراء يضارع ثراء الملوك، وعندما يعود منزله مساءً
كان يثري مائدة طعامه بوليمة لم يبتع منها شيئًا."

رغم أن فرجيليوس كان في هذه الأبيات يركز على حياة الفراغ، غير أن فكرة العمل كانت تقبع في الخلفية، حتى مع عدم وجود إشارة واحدة إلى العمل (labor) في الإثنى والعشرين بيتًا التي خصصها لهذا الاستطراد.[٨٥]

وقد دار كثير من الجدل بين نقاد الأدب حول هذه القصة الاستطرادية؛ حيث انقسمت آرائهم فيما بين اعتبار أن هذا المزارع أنموذجًا للعمل (labor) واعتباره نوعًا ما لتجرد الفيلسوف واستقلاله. لكن من عساه يكون عجوز كريكيوم هذا؟ ولماذا تقع أرضه بالقرب من مدينة تارنتوم على وجه التحديد؟

من الواضح أن الفلاح الطاعن في السن كان يتمتع بالاكتفاء الذاتي، ويحيا منعزلًا عن المجتمع؛ فتارنتوم نفسها تبعد عن العمران. ومن الظاهر أيضًا أنه بلا أسرة (خلافًا للفلاح بختام الكتاب الثاني)، رغم وجود صيغة الجمع "المجتمعون على الشراب" (potantibus) بالبيت (٤٦)، إلا أنها توحي أيضًا بوجود مجموعة من الأصدقاء.

ثمة إشارة مباشرة هنا إلى مثال الانسحاب الإبيقوري من المجتمع؛ وهو ما يتفق مع حديقة أبيقور التي كانت تقع خارج حدود مدينة أثينا. وبخلاف النحل، يضفي فرجيليوس على صاحب البستان سمة فردية فريدة وهي الانعزال عن المجتمع. من

85. Quartarone L., op. cit. p. 203-5.

ثم يعبر الفلاح العجوز والنحل عن نموذجين متعارضين، نطلق على الأول النموذج الفلسفي في الحياة وعلى الآخر الحياة على طريقة الرومان. وقد تغيب هذه القصة الاستطرادية عن ذهن الشاعر نظرًا لقدمها ولهذا استخدم الفعل "أتذكر" (memini, 125)، تعبر عن البعد الزمني للعصر الذهبي. ورغم أن الأبيات تحفل بالتعبيرات التي تفيد حياة الفراغ والدعة (otium)، فإن الإنتاج الذي قدمه هذا البستان كان ثمرة جهود صاحبه؛ فقد كان نموذجًا للفلاح الذي يملك قدرة فائقة على تحمل العمل الشاق، وبفضل اهتمامه (cura) وعزمه (animis, 132) حول أرضه إلى قطعة من الفردوس. هذا وتحمل الأبيات أيضًا شيئًا من الطمأنينة التي يدعو إليها لوكريتيوس؛ فقد كان صاحب البستان معتمدًا على نفسه مكتفيًا بمصادره الذاتية: "ولائم لا تعود عليه بفائدة" (dapibus inemptis, 133)؛ فيحيا مثل الملوك في استغناء عن غيره، قانعًا بحياته البسيطة، تلك الحياة التي تعد غاية الفلسفة الإبيقورية.(٨٦)

وفي الختام غادرتنا "الزراعيات" ونحن نحاول أن نوازن بين العمل غير المستحب (labor improbus) وخطة جوبيتر لشحذ همم البشر، أن نوازن بين النحل الذي يستجمع كل قواه ويعقد العزم على هدف واحد ويخلص له النية، وبين معنى عدم جدوى العمل الذي قال به لوكريتيوس وتمثل في الكفاح الشديد الذي كانت تتسم به حياة الثور الراحل، أو بين التخريب المسرف في القسوة والوحشية الذي قام به جوبيتر الغشوم فأضاع ثمرة جهود الفلاح وثوره. أما الشيء الوحيد البادي للعيان هو أن الحياة التي تتسم بالإعفاء التام من العمل والكد والعناء (labor) وإطراح الخوف (metus) والهموم (curae) كما صورها لوكريتيوس هي حياة مستحيل تحقيقها على أرض الواقع. يعد العمل الشاق جزءًا من طبيعة البشر – على حد ما

86. Thomas, R. (1992) " The Old Man Revisited Memory, Reference and Genre in Virg. Georg. 4.116-48", MD 29. pp. 58-61.

ذهب لوكريتيوس – رغم أن بمقدورنا في بعض الأحياء الإفادة من الجانب الإيجابي منها، لتحقيق سلام النفس (secura quies). غير أنه ليس ثمة وجود لهذا السلام التام؛ إذ يتعين على الفلاح أن يلتزم الحذر الدائم للتصدي لتهديد الآفات الزراعية والأمراض التي قد تصيب النبات أو الحيوان، ولدفع خطر الرياح العاصفة والسيول التي تغرق الحقول وموجات الصقيع التي تؤدي إلى هلاك الزرع. فالجنس البشري بوجه عام إنما يقع دائمًا تحت رحمة قوى لا سبيل إلى كبح جماحها، كجنون (furores) الحروب المدمرة وقوة الجاذبية الجنسية، وفوق كل ذلك أهواء الآلهة ونزواتها، أو الطبيعة المجردة وعالمها الفسيح والتي حاول لوكريتيوس أن يضعها في موضعها الصحيح.(٨٧)

ومما سبق يتبين لنا مدى تأثر فرجيليوس بنظيره وابن جلدته الشاعر التعليمي لوكريتيوس، هذا كما أن أسلوب محاكاة فرجيليوس كان فريدًا؛ فلم يكتف باستعارة صيغه فحسب بل امتد تأثير لوكريتيوس إلى محاكاة لا يعرف لها حدًا فقد امتد هذا التأثير إلى فكر فرجيليوس أيضًا واتجاهه بشكل عام. ففي الكتاب الخامس على سبيل المثال الذي يعالج نظرية لوكريتيوس بخصوص تطور الزراعة وضرورة العمل المتواصل والمضني – تبدو هذه الأبيات تحمل الطابع الفرجيلي، وإن لم تكن قد ألفت من قبل لقلنا أنها من لدن فرجيليوس. ظاهر القول إن فرجيليوس صاغ الزراعيات على غرار " في طبيعة الأشياء"؛ وعند إمعان النظر في كلٍ من النصين نجد أن تأثير لوكريتيوس هو الغالب على ديوان الزراعيات، فعلى سبيل المثال نجد أن فقرة واحدة من الكتاب الخامس (٢٠٦ – ٢١٧) قد نثرها فرجيليوس في إحدى عشر موضع من ديوانه، كما سبق أن ذكرنا في متن البحث.

87. Gale, M. , op. cit. p. 195.

النتائج المستخلصة من البحث:

- **يشرح ديوان " في طبيعة الأشياء" علل الأشياء، في حين أن ديوان "الزراعيات" يعلمنا شؤون الزراعة، ولكن هدف كل من الديوانين هو بلوغ الإنسان إلى حياة كريمة؛ ويقصد لوكريتيوس بهذه الحياة الكريمة الانسحاب من معظم مظاهر أعباء (labores) الحياة العامة، أما فرجيليوس فيعني بالعمل (labor) الانسحاب من المدينة والانشغال بزراعة الأرض.**
- **لا يتوقف مفهوم العمل على مجال النشاط الزراعي فحسب؛ فقد استعمله لوكريتيوس أيضًا للتعبير عن عدم جدوى الجهود المضنية التي يبذلها الجهلاء، فهو بمثابة عقوبة أنزلها البشر بأنفسهم نظرًا إلى أطماعهم ومخاوفهم. وكذلك الحال بالنسبة للزراعيات إذ نجد أن كلمة (labor) وردت لمرتين فقط لتفيد معنى إيجابي، أما باقي الاستخدامات فتحمل معانٍ سلبية، بما في ذلك " العمل الذي لا نهاية له" (labor improbus)، والعمل الشاق (labor durus)، والعمل البغيض الممقوت (labor ingratus)، وغيرها من النعوت الأخرى التي تدل على كراهية البشر للعمل.**
- **هناك مجال واحد فقط من النشاط يتفق الشاعران فيه على أن العمل(labor) شيء إيجابي وهو قرض الشعر؛ وهو العمل الوحيد الذي يعلي لوكريتيوس من قدره.**

قائمة المصادر والمراجع

أولًا المصادر:

Hesiod, Works and Days, Theogony. Trans. & Edit. by W. Rouse L.C.L. London (1943).

Lucretius, On the Nature of Things. Trans. & Edit. by W. Rouse L.C.L. London (1943).

Ovid, Metamorphoses. (2vols.) Trans. & Edit. by F. J. Miller L.C.L. London (1956).

Servius, Servii Grammatici Bucolica et Georgica Commentarii. (3vols.) Edit. by G. T. Teubner (1927).

Virgil, Eclogues, Georgics, Aeneid 1-6. Trans. & Edit. by H. R. Fairclough L.C.L. London (1943).

ثانيًا المراجع:

Betenny, A. (1972) The Literary Use of Animals in Lucretius' De Rerum Natura and Virgil's Georgics. Diss. Yale.

Catto, B. (1981) The Concept of Nature in " De Rerum Natura" of Lucretius and the "Georgics" of Vergil: Its Characteristics, Powers, Actions and Effects upon the Earth, Man and Man's "Labor". Diss. Pennsylvania.

Farrell, J. (1991) Vergil's Georgics and the Tradition of Ancient Epic: The Art of Allusion in Literary History, New York.

Gale, M. (2002) Virgil on the Nature of Things, Cambridge.

Lloyd, J. (2004) Lucretius in the Greco-Roman Didactic Tradition. Diss.Durham.

Meban, D. (2002) Essays in Virgilian Intertextuality: Text. Culture, Content. Diss. Toronto.

Perret,J. (1966) " The Georgics" in Virgil: A Collection of Critical

Essays. Prentice-Hall. 28-40.

Putnam, M. (1979) Virgil's Poem of the Earth, Studies in the Georgics. Princiton.

Quartarone. L. (1996) Locus Ambiguus: from Otium to Labor in Vergil's Eclogues and Georgics. Diss. Washington.

Sellar, W. (1908) The Roman Poets of the Augustan Age; Virgil. Oxford.

Stehle, E. (1974) " Virgil's Georgics: The Threat of Sloth," TAPhA 104 : 347-69.

Thomas, R. (1992) " The Old Man Revisited Memory, Reference and Genre in Virg. Georg. 4.116-48", MD 29: 35-70.

----- (1988) Virgil: Georgics. Cambridge.

----- (1986) "Virgil's Georgics and the Art of Reference" HSCPh 90: 171-98.

William, R. (1954) "Review of H. Altevogt, Labor Improbus: Eine Vergil studie." Orbis Antiquus 8 in CR n.s. 4: 302-3.